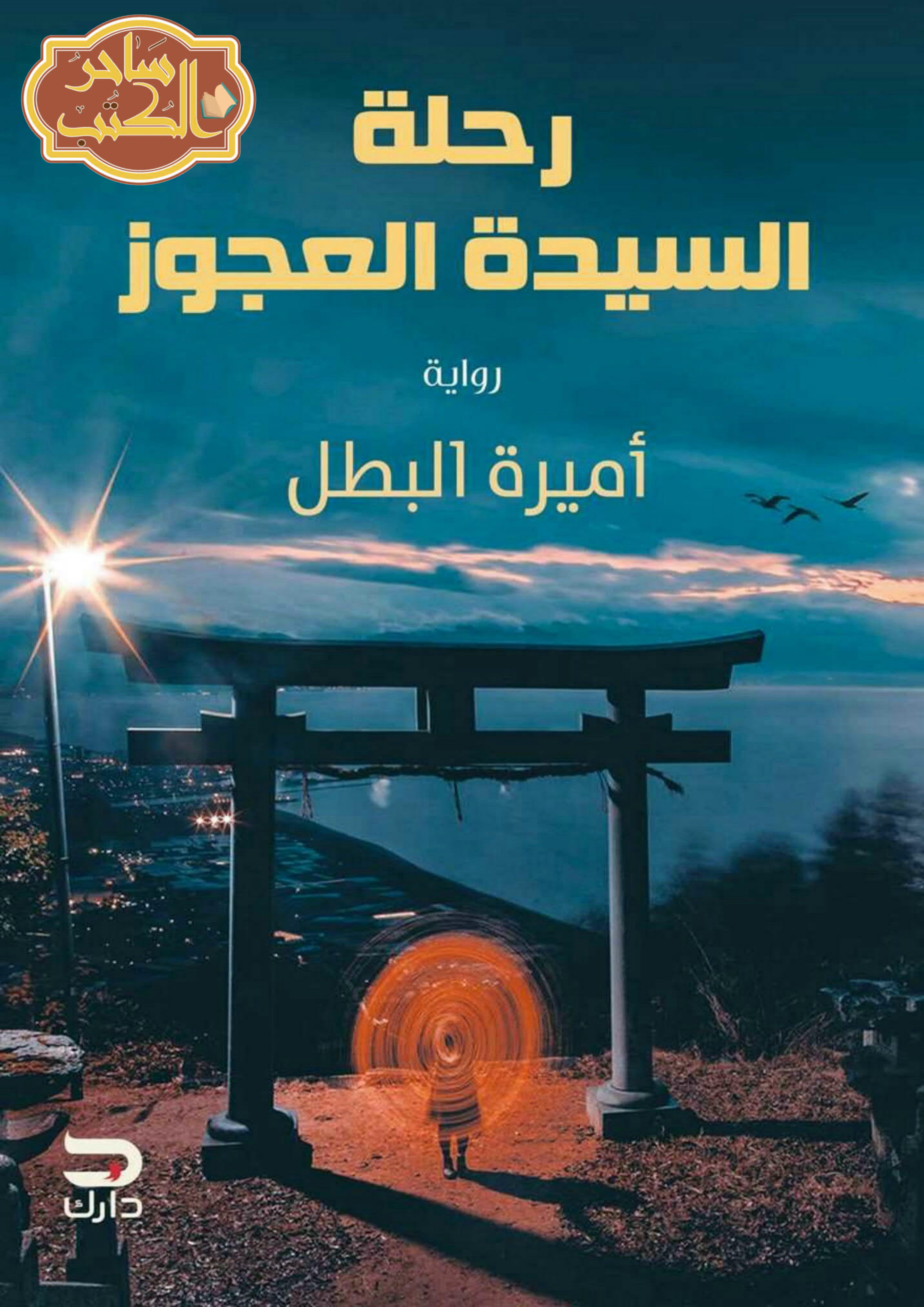


ساحر الكتب
رحلة السيدة العجوز
رواية
أميرة البطل
دارك

رحلة

السيدة العجوز



info@darak-eg.com



٠٢ ٠١٠-٢٤٨٣٢٦٦٩ ٢٧٢٥١٩١٥



١٥ ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.

رحلة السيدةالعجوز

أميرة البطل

تصميم الغلاف: أسامة علام

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٥٧٨٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨–٩٧٧–٦٦٣٤–١٨–٣

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

تدقيق لغوي– تنسيق داخلي:



www.sekoon.com

أميرة البطل

رحلة

السيدة العجوز

رواية



هذه الأفكار اليقينية لا تأتي للأرواح المستسلمة، ولا لهؤلاء الذين يؤمنون بالعلم فقط دون الاستسلام للجانب الروحي، إنما لهؤلاء الذين يصغون بصفاء إلى دواخلهم.

لذا، حينما يتراءى أمامك طريقان، لا تنظر أيهما متسخ وأيهما نظيف، ولكن اتبع حدسك وما ترسله الطبيعة لك من رسائل مخفيّة بين طيات الزمن. ولكن حينما تقرر وتدخل أحد الطريقين لا تغفل عن أي شيء تجده في الطريق، واحتفظ بكل ما تتعثر به قدماك، فربما يكون هو السبب لوصولك للكنز.

تحياتي

«ماشا هالبيرن»

(ا)

البداية

انتهى الدكتور «سليم» للتو من إلقاء محاضرة استمرت أكثر من ثلاثِ ساعات في محاولة لشرح رسالة حصوله على الدكتوراه، وهي علاقة الروحانيات بالمجتمع. بعدها انصرف متجهاً مباشرة إلى مكتبه وقد شعر «سليم» بدوخة، فجلس على كرسيّه وهو يضع يده على رأسه لتخفيف ألم الصداع الناتج من المجهود الذهني الذي بذله في التركيز في المحاضرة والإجابة على الأسئلة.

يقترب منه صوت أنفاس يشعر ببرودتها على وجهه، تلتقط أنفه رائحة كريهة تقترب من وجهه، أخذ نفساً قوياً ثم خفض يده عن وجهه برويّة فيجدها أمامه تماماً في مستوى وجهه، وعيناها القاحلتان في مقابلة عينيه تحملقان به. اتسعت عيناه وهو يحدق مشدوهاً لتفاصيلها وقوة انتصابها وضخامة حجم جسدها ولونها الذهبي الزاهي. انقطعت أنفاس الدكتور «سليم» تقريباً وازدادت ضربات قلبه، وشعر لوهلة أنه في حلم؛ تمكنت من عقله الهلاوس بعد تركيز ساعات متواصلة على شرح الباراسيكولوجي، أي الحاسة

السادسة والتخاطر والتواصل مع الأرواح، فأكيد هذا له علاقة بما تراه عيناه الآن.

بينما هي تقترب من وجهه أكثر وتُخرج لسانها وتلعق وجهه فيتراجع للخلف بحذر ويحاول مسح لعابها المقزز بيده من على عينيه.

وحينما عاد بنظره لها لم يجدها، استرد أنفاسه وانتفض واقفًا يبحث عنها يمينًا ويسارًا، حتى إنه جثا على ركبتيه أسفل مكتبه ومنه إلى كل ركنٍ في الغرفة ولم يجد لها أثرًا.

«تقريبًا أنا دخلت في مرحلة الهلوسة»!

قالها وهو يلملم أوراقه ويقفل حاسوبه بعد أن أقنعه عقله بأن ما رأى ليس سوى وساوس لا تستدعي التوجس، فكل هذا من أثر الأسئلة التي كانت تُوجّه له وكأنه درويش أو صاحب كرامة. واكتفى «سليم» بإعلان قرار الاستسلام لهذا واتجه لمركز صيانة السيارات للكشف على سيارته قبل السفر ليلًا، ومنها عاد إلى منزله ليجد «مَرام» زوجته وابنه «أنس» قد أعدّا حقائب السفر استعداداً للرحلة وقضاء عطلة نهاية الأسبوع في العين السخنة.

أعدت له زوجته فنجان قهوة سادة وزادت من البُن ملعقة أخرى كما طلب منها، ليستعد للقيادة وطريق السفر المعتم.

بلغت الساعة الثانية عشر منتصف الليل، وحمل كلٌّ منهم حقيبة، حتى «أنس» الصغير حمل حقيبته التي تحوي ألعابه التي سيستخدمها على الشاطئ، ولكنه نسي سماعة أذنيه على طاولة السفرة، واتجهوا جميعًا للسيارة.

– «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون»

قالها «سليم» مع أول ضغطة على دواسة البنزين، وتبعته «مَرام» وهي تحرك شفتيها بهمس: «باسم الأب والابن والروح القُدُس.. الإله الواحد، آمين»، بينما يهلل «أنس» في الخلف لانطلاق السيارة، فلم يعد لديه صبر أكثر من هذا للوصول إلى الشاطئ.

ومع بداية ولوجه طريق السخنة ها هي تظهر مرة أخرى؛ تنصب رأسها وتنظر له كأنها تتنمر لشيء ما، ومعها يتيقن بأنها ليست تهيؤات بل حقيقة ملموسة تظهر أمامه في ملء الطريق.

يحيد «سليم» لا إراديًا بطارة القيادة لتنجرف السيارة يمينًا لمكان مظلم بعيد عن الطريق الرئيسي، إلى

أن ترتطم مقدمة السيارة بشيء خفي في الظلام وتتوقف فجأة ومعها تعلن السيارة إنذارًا لعطل ما ويتوقف الماتور عن التشغيل تمامًا. ومع الصدمة قد ارتطم رأس «مَرام» في تابلوه السيارة فنتج عنه خدش، تستعيد وعيها لتبحث عن «أنس» وتنادي عليه وتسأله بأن يطمئنها عليه، ويأتي بين ذراعيها ولكنه لم يسمعها، وها هو الآخر ارتطم في ظهر الكرسي الأمامي وسقط في دواسة السيارة الخلفية.

أضاء «سليم» الضوء في سقف السيارة الداخلي ليجده ملقى في الخلف، فيهرول مترجلًا من السيارة إلى الخلف ويُخرج «أنس» ويتفحصه يمينًا ويسارًا خشية أن يكون أصابه مكروه، وتتبعه «مَرام» هي الأخرى من السيارة للاطمئنان على ابنها، وتتحسس أذنيه وتسأله أين سقطت منه سماعته، ولكنه لم يجبها واكتفت هي بأنه نظر لها وأنه في كامل وعيه وبخير.

ظهرت مرة أخرى في الجلد ليرسل لونها الذهبي بريقًا يجذب انتباه «سليم» فيمسك بيد «مَرام» وهي تحمل الصغير، ويحاول أن يهرب من خطر ما هو نفسه لا يعلمه، إنما لديه حدس مؤكد بداخله بأنها تحمل له ولعائلته شرًّا.



أطلقت «مَرام» صرخة مدويّة في الخلاء حينما رأت أمامها رجلين مفتوليّ العضلات، أقرب القول عليهم أنهما يحملان كل الصفات الشكلية للاعبي الملاكمة. أحدهما يحمل بيده سكينًا أقرب للسيف نصلها عريض وحاد، والآخر بيده مسدس.

تلقى «سليم» في البداية لكمة على وجهه أسقطته أرضًا، ثم واحدٌ منهما جذب «مَرام» من كتفها بقوة حتى إنها أسقطت «أنس» من يدها، والآخر حمله ولكنه لم يستسلم؛ ظل يصرخ ويتصاعد النشيج حتى إنه سقط من ذراعه. همّ «سليم» ليتحسس الأرض ليأخذ حجرًا يقاوم به هذا الجسد، ولكنه تلقى ضربة أخرى قوية على مؤخرة رأسه من الشريك الآخر أسقطته أرضًا مغشيًا عليه فاقدًا الوعي تمامًا.

لم يعيراه الرجلان اهتمامًا؛ أحدهما الممسك بـ«مَرام» كمّل طريقه والآخر يحاول أن يمسك بـ«أنس» الذي جرى هاربًا خلف أمه، ليحاول أن يلكم الرجل في ظهره ويبعده عن أمه، ليستدير الرجل وهو ممسك السيدة بيد والسكين باليد الأخرى في حذر حتى لا يصيب أحدهما بأذى، ولكن مع كثرة ركل الطفل له وحرصه على ألا تفلت منه «مَرام» سقطت من يده السكين لتنزل على معصم يد «أنس» وتبترها وتنطلق معها نافورة من الدماء يغيب معها عن الحياة من هول الألم



الذي شعر به، وتطلق معها الأم صرخة وتبكي حتى تفقد الوعي من هول المنظر.

(٢)

في اليوم الخامس من شهر يوليو (تموز) في حي أوجيماشي في قرية شيراكاو في محافظة أونو في اليابان، كانت السماء تثلج على مدار ثلاثة أيام متتالية دون توقف. قرُبت الساعة على العاشرة مساءً حينما ارتدى «يوكي يو» معطفه وخرج للتمشية ليفكر من أين سيأتي بالمال اللازم لإتمام زواج ابنته «هارونا» بعد أن أُغلقت أمامه كل النوافذ من القريب والبعيد.

«يوكي يو» رجل يبلغ الخمسين من عمره، متوسط الطول، وجهه يتشابه مع جميع اليابانيين مع اختلافات لا تُذكر؛ وجهه مدوّر أنفه مدببة إلى أعلى وعيناه ضيقتان ومسحوبتان بزاوية صاعدة. يعتنق ديانه الشنتو، وهي الديانة الأكثر شعبية في اليابان، كانت قديمًا تُحيي طقوسها بعض النساء من العرافات واللاتي كُن يقمن بالوساطة مع العالم الآخر كما يتنبأن بالحوادث المستقبلية. كانت العرافات يتمتعن بسلطة كبيرة، أما الآن تقوم العبادات على فكرة التواصل مع الآلهة و يسمونها (الكامي)، عن طريق تقديم القرابين في المعابد، ومن خلال الصلاة، و هي عبارة عن أدعية وأمانٍ يطلبها الشخص من الكامي.



يعمل في محل لصنع الحصير التاتامي الذي يستخدم في اليابان، وتشوتشين هي الصناديق المغلّفة بالورق وتوضع بداخلها المصابيح ويستخدم للزينة أثناء الاحتفالات وأمام المعابد، وهذا هو التشوتشين تخصص حرفته التي لم تدر عليه الكثير من الأموال فقط ما يكفي لقوت يومه هو وزوجته وابنته.

ظل يتسكع «يوكي يو» بين البيوت والحقول الخضراء المكسوّة بالثلج، حتى وصل لأعلى بقعة من القرية وتسمى المرصد تقع شمال القرية، وظل يتأمل منظر البيوت التي تغطيها الطبقات الثلجية البيضاء وتتخللها إضاءة نوافذها الصفراء، حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكل ما فعله أنه أخرج نفسه من دائرة التفكير دون إيجاد حل لها، بينما كان يترجل ويتأفف من شدة البرد، إذا به يسمع صوتًا يأتي من بين الأشجار ويقول:

– اقترب يا صاحب الهمّ.

فتلفت حوله يمينًا ويسارًا، فوجد امرأة عجوز تجلس القرفصاء أسفل شجرة، تنظر بين يديها وترتدي ملابس خفيفة لا تلائم هذا الصقيع الذي يحيط بهما، فوقف مكانه ونظر لها ربما تقصد أحدًا غيره، لم ترفع رأسها ولا نظرها تجاهه، فقط قالت:

– نعم أنت يا «يوكي يو».. اقترب.

اندهش حينما نطقت باسمه، ومع ذلك اقترب منها ولوّحت له بيدها أن يجلس أمامها، وقالت وهي ما زالت تنظر بين كفيها.

– مرّ العمر ولم يتبقَّ منه إلا دقائق معدودة، فعاهدت نفسي أن أهدي أول المارة أمامي لوح «كوكوري سان» رفيقة عمري التي لم تخذلني يوماً، ولو أنه صعب على قلبي أن يلمسها أحد بعدي. وكنت أظن أن وقتي سيحين قبل أن يمر أحد أمامي في هذا الوقت وهذا الصقيع، ولكن ربما تكون هي من أرادت ذلك، فاستمتع بما قُدّر لك يا «يوكي يو».

«كوكوري سان» هي لعبة مشهورة في اليابان شبيهة الويجا الصينية؛ يقوم اللاعب بكتابة حروف الهيراجانا اليابانية ثم يضع إصبعه في المنتصف فوق عملة معدنية، ويسأل سؤالًا ثم ينادي الروح «كوكوري» لتجيبهم عن طريق تحريك أصابعهم فوق الحروف. ومن قواعد اللعب المهمة أن تودع الروح عند الانتهاء من اللعب بقول «إلى اللقاء كوكوري سان». ويجب على اللاعب التخلص مما استخدمه في اللعب، أي أنه يجب إنفاق العملة المعدنية والقلم المستخدم في كتابة الحروف وإذا لم يتم ذلك سوف تلاحقك لعنة وربما الموت.

أخرجت اللوح من بين طيات ملابسها وناولتها له، وحينما أخذها سألها أين الحبر الذي كتبت به، لم تجبه فأعاد السؤال وهنا رفعت رأسها لأول مرة ونظرت له قائلة في صوت مكتوم:

– الروح كوكوري قدّرت لك الخير، إذا لم تريده فاتركه لصاحب نصيبه وارحل دون رجعة وتهانينا بزفاف ابنتك.

لم يجب ثم أخذ من يدها اللوح والعملة المعدنية ورحل. وظلت تراود عقله الكثير من الأسئلة التي لم يجد لها سبيلًا للإجابة، ومعها ظلت العجوز تهمهم:

– أنا السبيل من لا شيء لكل شيء

أنا الطريق إلى مدينة الخير

أنا الذي سيأخذك إلى الخبز

في غضون خمس عشرة دقيقة وصل إلى المنزل وظل يتفحص لوح «كوكوري سان» والعملة التي لم يرَ لها مثيلًا في بلده من ذي قبل.



(٣)

ومع تخلُّل ضوء النهار نوافذ البيت استيقظت «ميزاكي» زوجته وابنته «هارونا» فوجدتاه ملقى على الأرض قد غفا وهو متكئ على ذراعه اليسرى، وفي اليمنى اللوح والعملة المعدنية قد وقعت على الأرض بين قدميه.

ارتكزت زوجته بجسمها البدين على ساقيها وذراعيها، ثم التقطت العملة من الأرض وظلت تنظر فيها وتقلّبها من الوجه للخلف، حتى شعر «يوكي يو» بحركة وانتفض مفزوعًا ليجد نظرة استنكار على وجهها بملامحه الضيقة وهي تقول:

– أعُدت إلى عهد الطفولة يا «يوكي»؟!

– لا إنها ليست لي.

– لا تقل لي إنك اشتريتها لابنتنا التي سيقام عرسها بعد أيام!

– ليس هكذا أيضًا يا «ميزاكي»، اجلسي بجواري لأقصّ عليك ما حدث معي ليلة أمس، فأنا في حيرة من أمري.



اتكأت بجدسها البضّ على كتف زوجها، وبعد معاناة جلست بجواره أرضًا، وبعد أن قصّ عليها ما حدث مع السيدة العجوز قالت وهي تحاول أن تخفي فضولها ولكن عيناها الضيقتان تفضحانها:

– لا تجربها يا «يوكي»، نحن لا نعلم أين الحبر الذي كتبت به ولا أصل هذه العملة العجيبة. وأنت تعرف العرّافات هنا في قريتنا.. خبيثات إلى حدٍّ كبيرٍ، وما يستطعن فعله بمثل هذه الأرواح التي كثرت حولها الأقاويل من أرواح خيّرة وأخرى شريرة!

– ولكن يا «ميزاكي» أنا لا أملك طريقًا غير هذا، فمن أين سنأتي بالمال لمراسم حفل زواج ابنتنا الوحيدة؟! وأنا لن أقدر على تحمل كسر قلبها.

– وماذا إن لم تعد علينا روح كوكوري الموجودة في هذا اللوح بالخير ولم يطلنا منها إلا اللعنة؟!

– أهناك لعنة أكثر مما نحن عليه؟ فنحن لم نذق إلا طعم الفقر!

نظرت له مكررةً نفس تحذيراتها، ولكن هذه المرة وهي متنمرة له إن فعل ذلك فستترك له المنزل، فهي لن تسمح له بأن يأتي بلعنة لها هي وابنتها. ثم تركته ورحلت عنه وبدلت ملابسها وخرجت لشراء مستلزمات الغداء وصاحبتها الابنة.



انتهز «يوكي يو» هذه الفرصة وقام بإنزال ستائر المنزل جميعها، وأوقد شمعة وفرد لوح «الكوكوري» وهيأ لها الأجواء حتى تحضر روحها في سلام، وقام بوضع العملة المعدنية في الوسط وإصبعه عليها، وقام بطرح سؤاله وهو مغمض العينين:

– أين أجد سبيلًا للمال؟

فتح عينه ليتتبع تحريك العملة على الأحرف ويحصل على إجابته.

تحركت العملة عدة حركات كوّنت كلمة ثم توقفت ثم استكملت حركتها لتكمل الأخرى.

وكان الرد على مطلبه أنه «بيت العم».

لم يفهم ماذا تقصد روح الكوكوري، فقام بطرح نفس السؤال بنفس الطقوس مرة أخرى؛ ربما يجد ما يطيب روحه فوجد نفس الإجابة: «بيت العم».

فأخذ يقول لنفسه مستنكراً:

– بيت عمي! عمي الذي مات ولم يملك سنتًا لشراء دواءً لمرضه ومات وحيداً دون زوجة ولا أبناء.



لم تكن علاقته بعمه علاقة جيدة، فكان العم هو من جعله يحترف صناعة الحصير والتشوتشين وجعله يتقن كل أسرار الحرفة، ولكن معظم ذكرياته معه أليمة وخاصة في هذا البيت الذي تدعوه روح الكوكوري لزيارته، فكان يجلس فيه وهو طفل منكبًا على وجهه من فجر اليوم يعمل حتى الظلام، ويأخذ عمه ما أنجزه ويقوم ببيعه ولا يعود على ابن أخيه إلا بأقل القليل. ولم يكن لدى «يوكي يو» طريقًا آخر يسلكه، فهو من النوع الذي يحب أن ينقاد ولا يملك طموحًا ولا أحلامًا للغد فما كان عليه إلا أن يتحمل مذلة عمه الجشع الذي يداوم عقابه إما بالضرب والإهانة أو بحرمانه من قوت يومه الذي تعب فيه، حتى آلت به الأحوال أنه أدمن شرب الكحوليات وأصابه المرض وهنا تركه ابن أخيه الذي أصبح شابًا وقام بالعمل في محل تحت إمرة شخص آخر.

بالرغم من عدم اقتناعه بإجابة روح كوكوري فإنه مع حلول الليل وهدوء الأجواء التجارية في القرية سلك الطريق إلى بيت عمه الذي يوجد في منتصف القرية بالقرب من السوق، فهو بيت خالٍ من الأثاث حتى إنه خالٍ من أغطية للنوافذ أيضًا، لا يوجد به غير العتمة والأتربة التي تكسوه، حتى أن بعض البائعين في السوق استخدموه لحفظ المُهدر من بضائعهم لحين الحصول عليها عند الحاجة.

وصل «يوكي يو» لبيت عمه وهو متقين أنه لن يجد ما ينفعه في محنته، ولكنه كالغريق الذي يتمسك بقشة.

دخل المنزل وظل يتحسس خطوات قليلة بحرص، ثم توقف وأخرج شمعة من جيبه، وقبل أن يشعلها شعر بحركة أمامه فارتبك وسقطت من يده الشمعة فجثا على ركبتيه وظل يتحسس بيده ليعثر عليها، وإذا بضوء يأتي أمامه من بعيد. وفي نفس اللحظة التي أغمض عينيه وفتحهما ليقوِّي تركيز عدسة العين كانت اقتربت من وجهه، لونها الذهبي وضخامة جسدها تضوي في المكان دون إنارة.

سيطرت رجفة على جسد «يوكي يو» وارتعدت مفاصله وتساقط العرق من جبينه رغم الصقيع الذي يحيطه، وفجأة شعر بسخونة شديدة وتزايدت في صدره ثم تمركزت في بقعة في قلبه، ومعها غفت عينه شيئًا فشيئًا ونقلته إلى دائرة تحيطها النيران من كل الاتجاهات ويتمركز هو في منتصفها ويقف خارج الدائرة عمه وهو ينظر إليه ويصيح في وجهه، وبجواره زوجته «ميزاكي» وهي تصرخ وتبكي، وبعدها ابنته وهي تستنجد به من شيء مجهول. وتدور بيه الدائرة دون توقف ومعها يرى وجوه أشخاص تتحدث لبعضها البعض، منهم من يعرفه ومنهم لا. يزداد مع دورانها أصوات بكاء



تتخلله ضحكات عالية. ظل في هذه الدوامة إلى أن سقط في منتصف الدائرة، وحينما حاول أن يرفع رأسه ليتفادى لهب النيران ظهرت أمامه العرافة وكانت تبدو أكثر شبابًا عما رآها؛ وجهها يحمل ابتسامة ونظرة ثابتة لا تنم عن شيء إلا الغموض. بدأت تقترب منه شيئًا فشيًا ثم مدت له يداً حتى يهم بالنهوض، وحينما فعل بدأت ملامحها بالذوبان حتى تلاشت من أمامه تمامًا، وتصاعدت النيران وعلت واقتربت منه أكثر، وبدأ الأشخاص في الاختفاء، شخصًا تلو الآخر، عدا عمه الذي دخل معه الدائرة حاملًا النيران على جسده ليسرع خطاها إلى جسد «يوكي يو».

«عائنة» جنّ من الصنف الزاحف الذي يكون على شكل حيّات، تعيش في الصحاري والبيوت وتبلغ من العمر ثلاثمائة وخمسين عامًا، فهي من النوع الناري من فصيلة عَبدة النار ومن سلالة قبائل الجن الأخضر بالصين، وهي نتاج تهجين مرعب للشياطين حتى تخرج بالمحصلة النهائية. جِنّ أكثر عُتُوّا وصلابة وقدرة على التحمل، وتتميز أجسادهم بأنها كبيرة الحجم وطويلة جدّا ويمتاز هذا النوع بالعناد والتكبر، ويستخدم في مس الجسد البشري أسلوب النفخ الناري وهو أفضل سلاح لديها يؤثر على جسد الإنسان فيشعر بالحرارة في بقعة معينة من جسده حسب المكان التي تريد أن



تسكن فيه. عاشقة من الدرجة الأولى للجنس، وحينما تدخل جسد رجل لا تخرج منه إلا وهو ميت أو لا تتركه إلا بعلامة مؤذية. «عائنة» وجبتها المفضلة هي الدم، لا تؤذي من قامت معه بعهد ولو إن هذا النوع لا عهد له، ولكنها تكون طواعية له وتسخّر له قواها ما دام هو مصدراً لارتوائها ونشوتها.



(٤)

تخلل ضوء الصباح فتحات النوافذ التي لا يغطيها حاجب، إلى أن وصل على وجه «يوكي يو» فاستيقظ منتفضًا يتلفت يمينًا ويسارًا بحثًا عنها ولكنه لم يجد لها أثرًا. ظل عقله الباطن يقنعه بأن هذا ربما كان حلمًا، وبينما هو داخل صراعه مع عقله سمع صوتًا في أذنيه وكأنه يضع سماعة هاتف وهناك شخص آخر يحادثه.

صوتها أنثوي مبحوح هادئ، تنطق الحروف بوضوح وكان لصوتها رنّة مع كل حرف في نهاية الكلمة. عرّفته بنفسها وإلى أي سلالة تنتمي، واسمها وعمرها وكل تفصيلة أرادت هي أن تخبره بها عنها وعن قبيلتها، وعرضت عليه المساعدة في أي شيء وكل شيء يريده ويأمرها به، وعلى غرار هذا سيكون بينهما عهد من الدم أن لا تؤذيه هي ولا هو يؤذيها، لأنها برغم قوتها حينما تتحول لشيء مادي في صورة حيّة أو أحد أنواع الزواحف تكون في أضعف حالاتها، ويمكن لأي إنس أو جان أن يقضي عليها بسهولة.

أومأ «يوكي يو» برأسه بالموافقة دون تردد ولا تفكير، ولكنه لم يفهم ما تعنيه كلمة عهد، وقام بسؤالها وصوته يرتجف:



– كيف سيتم هذا العهد؟

ردت عليه وصوتها يصدح بين أركان المنزل:

– ستبدأ أنت بالجزء المهم، وهو أن تثبت ولاءك التام لي أنا وبني جنسي، وحينما يحدث ذلك سأكون تحت إمرتك؛ آتيك بكل ما تشتهيه نفسك وأكثر، ثم يأتي دوري أنا في إنهاء مراسم توثيق العهد بين جنسينا.

لمعت عينا «يوكي يو» وسألها:

– كيف أقوم بفعل هذا الجزء المهم من العهد؟

ردت هذه المرة بنبرة قوية لا تهاون فيها:

– تجرح الكفوف وتسيل الدماء وتكون في عراء آدم وتقتل دون رحمة مثلما قتل قابيل أخاه هابيل. ستقطع الرؤوس وتشق البطون وتزهق الأرواح وتجلس القرفصاء بينهم باكيًا وتسكب الدماء في الصحن، ثم تكسر ظمأك وتتناوله شرابًا احتفاءً بقرينك الجديد.

الآن لا ينقصهما غير أن يبدأ في توثيق هذا العهد بالدم مثلما أخبرته؛ أن يقوم بإسالة الدم من يده

بإحداث جرح غائر في باطن يده حتى تسيل الدماء منها.

لم يفكر بالأمر كثيرًا وقام بالتقاط قطعة بلاستيكية سميكة من الأرض لها سن حاد ووضع سنها في منتصف باطن يده اليسرى، وظل يضغط وهو مغمض العينين إلى أن أحدث ثقبًا في جلده وخرج الدم منها، وأكمل سحب السن إلى آخر كفه حتى سالت دماؤه بغزارة، ثم اعتدل وخلع ملابسه بحدّة من شدة كتمانه الألم الذي يشعر به وأصبح عاريًا كما ولدته أمه، وهنا ظهرت ثلاث نساء عاريات لم يسبق له أن رأى في مثل جمالهن المتكامل. كلٌّ منهن تقف على اتجاه ليكتمل شكل مثلث متساوي الأضلاع ويقف في منتصفه «يوكي يو» الذي ظهر تحت قدمه صحن من المعدن وبداخله سكين، أمسك بالسكين واقترب من الأولى وحزَّ بها رقبتها دون مقاومة منها فسقطت الرأس ومعها دموعه التي حاول أن يحبسها ولكنها غلبته. وسقط الجسد على الأرض وفعل مع الاثنتين ما فعله مع الأولى ثم ذهب وأحضر الصحن وشقّ بطن الأولى كرقبتها ووضع بعضًا من دمائها في الصحن وذهب للثانية وأخذ منها والثالثة، ثم عاد مكانه وجلس القرفصاء وهو يرتجف وينحب ويتصبب عرقًا في شدة الصقيع.



مسك الصحن وإذا به يهمّ بشرب الدم ولكن حاسة الشم غلبته، فكانت رائحة الدم نتنة فسقط الصحن منه، وحاول أن يقاوم إلى أن قام واتجه إلى أقرب ركن وتقيأ كل ما في معدته، وبعد أن اعتدلت أنفاسه عاد للوعاء وكان قد سال كل ما فيه على الأرض فجثا على ركبتيه وقام بلعق الدماء السائلة على الأرض، وهنا تباعدت أشكال الأجساد الملقاة على الأرض، وتحولت لثلاث حيّات منتصبات الرأس، وكأنهن يهللن لاكتمال الميثاق ومراسم العهد. وهنا ظهرت «عائنة» وسمحت له بأن يرحل إذا أراد وأنها من هذه اللحظة تحت إمرته؛ بمجرد أن يذكرها في مخيلته ستكون أمامه لأنهما أصبحا روحين داخل نفس الجسد.

لم ينبس ببنت شفّة وقام بارتداء ملابسه.

واتجه سائرًا إلى بيته بينما الدماء تتساقط من يده، وحينما وصل قام بغسلها بالماء ثم وضع عليها بعضًا من الخمر حتى يتوقف تدفق الدم، وأحكم الضغط عليها بالكثير من القطنِ ولفّها بالشاش وخرج إلى زوجته وحكى لها بعضًا مما حدث معه، ولكنها لم تتقبل ما قيل وهاجت عليه وماجت وقامت بتهديده إذا لم يبتعد عن هذا الطريق فسوف تهجره وترحل عن المنزل، ولكنه لم يُبدِ لكلامها اهتمامًا وأصر على استكمال ما بدأ،

وحذرها أن لا تخبر أحداً عما عرفته وإلا سيصيبها أذى كبير.

وبالفعل نفذت ما وعدت به وقامت بحزم أمتعتها هي وابنتها وانتقلت في نفس اليوم إلى منزل والديها.

بدأت العلاقة بين «يوكي يو» و«عائنة»، فكانت تلازمه كظله. في بادئ الأمر كان يتفاجأ ويذعر من شكلها، ولكن تلاشى هذا الاستغراب يومًا بعد الآخر، حتى إنها لو غابت عنه لدقائق لم يرها أمامه يتساءل أين ذهبت وتركته، فقد تعوّد على التحدث معها طيلة اليوم، وكان يحب نبرة صوتها المبحوح داخل أذنيه، وكان حتى الآن لم يطلب منها شيئًا ولا يعرف قدراتها، وكان ينتظر منها ما ستجود عليه به إلى أن زاره أحد زملائه في العمل ليطمئن عليه ويسأل لماذا لم يعد يأتي للعمل، فأخبره بأنه مريض ولم يعد قادرًا على العمل ولن يذهب مرة أخرى.

بعد ذلك حكى له زميله عن مرض ابنه وأنه ذهب للأطباء في شتى التخصصات ولكنهم لم يجدوا لحالته تشخيصًا طبيًا، وظل يبكي متخوفًا أن يفقده، وهنا سمع «يوكي يو» صوتها وهي تقول له:

- أخبره أن يأتي بابنه هنا، فالليلة مقمرة وسيتم شفاؤه سريعًا من أول رؤية.

وهذا ما حدث، صمت لدقائق وهو ينظر للرجل دون حراك ثم نطق في شرود:

- اذهب وأحضِر الولد وعد سريعًا، واحرص أن لا يأتي ثالث معكما.

اندهش زميله في البداية من الطلب بإحضار ابنه وقال باستهزاء:

- ماذا دهاك! هل تركت الحرفة وأصبحت طبيبًا ونحن لا نعلم؟!

ردد «يوكي يو» طلبه بإحضار الفتى بلهجة أكثر صرامة ثم أشاح بنظره بعيدًا.

تعجب الرجل من طريقة «يوكي يو» الصارمة غير المعتادة في الحديث، وتحول شخصيته المنطوية الهزيلة إلى شخص واثق الخطى، ورأى أنه لا مانع من المحاولة، وبالفعل ذهب وعاد سريعًا ومعه الطفل.

في هذه الأثناء قام بإحضار ما طلبته منه «عائنة»، فقام بتحضير طاولة وأشعل الشموع على حافتها



المستطيلة، وقام برش بضع قطرات من بوله على سطح الطاولة. وحينما أتى الطفل استلقى على الطاولة، وبمجرد أن مرر «يوكي يو» يده على كل الشموع واحدةً تلو الأخرى ثم مررها على جسد ورأس الطفل مثلما أخبرته «عائنة»؛ استفاق ونزل عن الطاولة وتحدث مع والده وكأن لم يكن به شيئًا مطلقًا.

ظلّ الرجل يهلل باسم «يوكي يو» حتى لهج بالشكر لسانه.

ومن هنا كانت انطلاقة صيت العراف «يوكي يو»، وانتشر الخبر في جميع أنحاء القرية ومنها للقرية المجاورة، ومنها للبلده القريبة والبعيدة، وأصبح يأتي له كل من لديه حاجة، وكان يتقاضى أموالًا طائلة أمام مساعداته للمرضى ومن كل من له حاجة مستعصية، حتى أصبح لديه أموالًا أكثر من عدد الدقائق التي عاشها منذ ولادته.

وبعد مرور فترة من مغادرة زوجته البيت أرسل لها شنطة مليئة بالنقود لإتمام زواج ابنته بالشكل الذي يليق بها. في بادئ الأمر رفضت وهمّت أن تعيدها له، ولكن الابنة رفضت وأصرت أن تأخذها، وقالت لها في حنق مع نبرة مختنقة:



– لماذا ترفضين المال يا أمي؟ نحن في أشد الحاجة إليه!!

– أنا لا أريد شيئًا من أبيك.

زمّت شفتيها وربعت ذراعيها وقالت بغضب:

– ولكن هذه النقود لي أنا وليست لك، أنت ارفضيها كما تشائين ولكن أنا لن أفعل.

– يا «هارونا».. من الممكن أن يتأجل موعد عرسك حتى نتدبر باقي المفروشات، وعلى قدوم الصيف تكون جاهزة.

– من أين يا أمي؟! أنت لا تعملين، وجدي لا يملك إلا قوت يومه!

ردت الأم بسرعة:

– ولكن يا ابنتي هذه النقود...

وسكتت.

نظرت لها «هارونا» بفضول وسألتها:

– ما بها هذه النقود؟! أكملي؟

لم تجد من أمها غير الصمت والحيرة في عينيها، فأكملت في جمود:

– إن كنت فعلًا تريدين منّي أن أعيدها لأبي أخبريني السبب، غير ذلك استعدي حتى نذهب لاستكمال ما ينقصني.

نظرت لها «ميزاكي» شاردة واكتفت بالصمت.

وبعد إنهاء المشادة الكلامية بينهما، والتي عجزت فيها الأم عن شرح سبب محدد لرفض النقود واستسلمت لطلب ابنتها، وبالفعل تم شراء احتياجاتها على أكمل وجه، بالإضافة إلى أنها ساعدت خطيبها (هالبيرن) في إنهاء نواقص البيت وإتمامها من الداخل والخارج.

مع بداية الشهر التالي أقيم العرس الذي جمع كُلًا من هارونا وهالبيرن حيث أقاما مراسم حفل الزفاف على طريقة ديانة الشنتو في القاعة الرئيسية للمعبد. وقام الكاهن بتلاوة صلاة خاصة بالزواج هدفها تطهير جسد العروس والعريس والتوجه للآلهة لإعلان الزواج، وبعد ذلك، شرب كلاهما الساكي الذي تم صبه في نفس الكأس بالتناوب لترسيخ العلاقة بينهما ثم قاما بقراءة كلمات عهد الزواج بصوت عالٍ، وهنا هلّل الجميع وعلت أصوات



التصفيق الحار واتجه الضيوف من العائلتين إلى حديقة المنزل وقاما بالاحتفال

وحضر «يوكي يو» مراسم الزفاف من أولها الذي بدت عليه النعمة، فقد ارتدى كيمونو مزخرفًا من أفخر أنواع القماش، كما أنه بدا أصغر مما كان قبل عشر سنوات أو أكثر. وكان يمشي بينهم وهو يشعر بقدر عالٍ من الزهو. كما ارتدت «هارونا» كيمونو الزفاف الذي بدا على تفاصيله الثراء وكأنها ابنة رجل أعمال ثري، وهذا ما تعجّب له الحضور ولكنهم اكتفوا بالتساؤل فيما بينهم، لأن «يوكي يو» لم يترك باب أحد منهم ولم يطرقه للمساعدة.

انتهى «يوكي يو» من همّ ابنته ولكنه لم ينته من «عائنة»، بل ابتدت بينهما الحكايات وطريق جديد هو طريق الروحانيات والسحر، وذاع صيته في أرجاء البلاد وأصبح بيته ملاذاً لرجال الأعمال والشخصيات المرموقة في الدول، فهو يقوم بتسهيل مصالحهم وقضاء حوائجهم وإتمام محاولات الانتقام من أعدائهم وخاصة بالقتل. ودائماً كان يقدمهم لقرينته قرباناً لتتغذى عليه. لم تكن تتغذى بشكل يومي كالبشر ولكن كلما أتيح أمامها شخص يعيش بمفرده أو آخر يمشي وحيداً، أهم شيء لا يكون هناك توابع لما تفعله به. وكان يحدث ذلك عادة في بيت العم مكان لقائه الأول معها، حيث الظلمة والفوضى، تحظى يومها



بفريسة لذيذة لشرب دمائها، وكان كل قتلاها يموتون بنفس الطريقة التي عجز الأنس عن التوصل لفاعلها، فكانت تشق ظهر الضحية وتكسر الضلوع وتثنيها بشكل معين ثم تخرج الرئتين ليبدو ظهر الضحية في النهاية على شكل طائر ملطخ بقطرات الدماء المتبقية في الجسد.

ظلت علاقة «عائنة» و«يوكي يو» تتطور يومًا عن يوم، وتتعلق هي به وهو أكثر بدوره؛ هي تساعده في النهار وتكون له أشبه بآلة تنتج بلا كلل أو ملل وهو يعاشرها ليلًا، هي تروي روحه وتعود به ما فاته من العمر والمتعة وهو يشبعها على قدر المستطاع، فهي صاحبة نهم لا نهاية له.

ذات ليلة جاءت ابنته وتحدثت معه حتى يذهب لأمها ويراضيها ويعيدها لتعيش معه بالمنزل، فجلست أمامه وقبل أن يستطرق هو لأي موضوع بادرت هي بالسؤال:

– أمي تبكي ليل نهار يا أبي، ألم يحن الوقت للمصالحة؟

– أنا لم أطلب منها أن ترحل عن المنزل، هي من قررت ذلك.



– أنا لم أكن أعلم سبب خلافكما حينما ذهبت وتركت المنزل، ولكن الآن كل شخص في القرية بات يعلم عن سبب تركها لك، والطريق السحر والشعوذة الذي طرقته.

– دعينا لا نتطرق لهذا الموضوع يا «هارونا».

– ولكن أنا من حقي أن أعرف، منذ متى وأنت تعلم شيئًا عن السحر؟! طيلة سنوات عمري لم يبدُ عليك غير أنك رجل بسيط صاحب حرفة لا أكثر، حتى أمي كلما فاتحتها في هذا الموضوع لأعرف تفاصيله أو حتى أتأكد أنها تركت المنزل بسببه تغلقه قبل أن تبدأ فيه. أنا ابنتك الوحيدة ومن حقي أن أعرف.

– إنها عطية أهداني إياها القدر.

ظلت «هارونا» تتحدث محاولةً أن تفهم منه أصل الموضوع حتى صاح في وجهها بصوتٍ أجش ونبرة مقتضبة وأنهى الحديث قائلًا:

– إما أن تغيري الموضوع أو تذهبي من حيث جئت!

تنهدت وتيقنت أنها لن تُخرج منه ما لا يريد أن يفصح عنه، وعادت لموضوع أمها وقالت محاولةً أن تخفض نبرة صوتها:



– حسنًا يا أبي، يومًا ما سأعرف كل تفاصيلك، ربما ليس اليوم أو غدًا، ولكن إن تأكدت يومًا ما أنك تسلك طريقًا غير شرعي لن أسامحك حتى مماتي.

هنا نظر لها بغضب، وقبل أن ينطق قاطعته:

– نعود لموضوع أمي..

– لم يعد مرحبًا بها هنا يا «هارونا»؛ المنزل أصبح مكان عمل أكثر منه مكانًا للمعيشة. إن أردت سأذهب للاطمئنان عليها من وقت لآخر أو أشتري لها آخر أكثر رفاهية.

– أنا تحدثت معها وهي لن تمانع بأي خطوة تبدر منك لتعودا معًا من جديد، فقد طال البُعد وقصرت البقية من العمر.

– اتفقنا.. سآتي لها صباحًا.

حينما ذهب في الصباح ليتصالح معها وجدها قد فارقت الحياة، ولم يتوصل أحد لسبب الوفاة غير أنها سقطت من أعلى الدرج وظلت تأن وتمسك رقبتها وكأنها تختنق حتى فارقت الحياة.

حينما سمع «يوكي يو» هذا تأكد في قرارة نفسه أن «عائنة» لها اليد الأولى فيما حدث، فهي لن تقبل



مشاركته مع أحد غيرها وقد صرحت له بهذا أكثر من مرة، ولكنه لم يدرِ أن النية مبيتة مع الإنذار وليس مجرد تهديداً للعلم بالشيء فقط.

منذ وفاة «ميزاكي» وتوطدت العلاقة بينه وبين ابنته «هارونا»، وكان دائما يحذر «عائنة» من الاقتراب من ابنته الوحيدة، وخاصة أنه تعلق أكثر بوليدتها التي تشبهه كثيراً، وهو من قام بتسميتها بعد الولادة وأطلق عليها اسم «ماشا».

منذ ولادة «ماشا» وأصبحت حياته تنقسم بين «عائنة» وتكوين الثروة وبين حفيدته، حيث أصبح يتردد على بيت ابنته «هارونا» خصيصاً ليراها، وكان يستشعر في عينيها منذ ولادتها نظرة تحدٍّ، وعيناها بهما لمعة تنم عن ذكاء وتحدٍّ لم يملكهما هو يوماً. دائماً يرى فيها ما افتقده في شخصيته، يتابع نموها أمام عينيه يوماً تلو الآخر. وكانت طفلة تسبق سنها في كل شيء؛ المشي والأكل، ما عدا الكلام، فهي منذ نعومة أظافرها وهي تتقن السمع ولا تتحدث إلا بالقليل. يعطي ابنته أموالًا طائلة كي لا تحرم «ماشا» من شيء، وفر لها معلمين عدة حتى إنها أتقنت عدة لغات بجانب العبرية والسامرية وهي لم تبلغ السادسة من عمرها.



وبالرغم من ذلك لم تتمتع الطفلة «ماشا» بحياة سوية، فكانت منبوذة دائمًا بين الأطفال من عمرها بسبب صيت وسمعة جدها بأنه يؤاخي الجن والعفاريت ويقوم بأعمال شعوذة، فدائمًا ما تسمع همهمات الأطفال وهم يسبونها ويلعنون أصلها.

ذات يوم وهي ذاهبة إلى المدرسة كان هناك تجمعًا قريبًا منها يضم الكثير من البنات والأولاد، وحينما رأوها علت ضحكاتهم وأمسك بعضٌ منهم الحجارة من الأرض وبدأوا في قذفها عليها وهم ينادون «اقتلوا الساحرة».

لم تلتفت لهم «ماشا» ولم تتساقط دمعة من عينيها رغم الألم الذي أصاب جسدها من رطم الحجارة بها، إلى أن تجرأ أحد الأولاد واقترب منها وقام بضربها على وجهها، هنا صاحت «ماشا» وظلت تصرخ وهي تقول:

– لماذا فعلت ذلك بنفسك أيها المسكين! أنا عندي داء كاللعنة نُقل إليّ من جدي، الآن قد نُقل لك وأصبحت مثلي أنا وهو.

سقط الولد على الأرض وظل يتحسس جسده وهو يصرخ ويبكي بحرقة:

– ماذا فعلتِ بي يا ساحرة؟!

– لم أفعل بك شيئًا، أنت من فعلت بنفسك يا مسكين. من الآن وكل ليلة حتى آخر عمرك سيتحول رأسك إلى رأس كلب ويظهر ذيله من مؤخرتك، يحدث هذا مع كل غروب للشمس وتظل هكذا حتى الفجر.

وهنا حل الهدوء على الفضاء وانقطعت الهمهمة والضحكات وتباعد الأطفال واحداً تلو الآخر، حتى فرغت الساحة تمامًا خوفًا منها ومن دائها، ولم يتبق غيرها هي والولد فاقتربت منه الطفلة «ماشا» بحذر وهي تقول:

– هناك حل واحد حتى تتخلص من اللعنة.

فسكت الطفل وقال لها:

– هيّا انطقي ما هذا الحل؟ فأنا إذا تحولت لرأس كلب سيتبرأ منّي والداي وإخوتي ولن يصبح لديّ أصدقاء بعد الآن!

فقامت وقالت وهي تسير:

– تعال معي.. سننجز ذلك في دقائق وتعود لحالتك الطبيعية.



نهض الطفل من الأرض وسار خلفها وهو يتلفت حوله ويتحسس رأسه ومؤخرته وينظر للشمس وهو يترجاها أن لا تذهب الآن.

بعد السير وصلت إلى الحديقة ثم حلت عقدة رباط من حقيبتها وقامت بربط يدي الولد للخلف في جذع شجرة، وحذرته إذا صاح أو تحدث وهي تقوم بإخراج اللعنة منه ستبدأ من الأول.

وظلت تضرب فيه حتى أدمته وتورمت وجنتاه، ثم قامت بفكه وأطلقت سراحه، ولم يتفوه الطفل بحرفٍ من يومها لا هو ولا غيره من المتنمرين عليها.

بعد مرور عدة سنوات ليست بقليلة على علاقة «يوكي يو» و«عائنة» قررت الأخيرة أن تمنحه هدية لا تُقدر بثمن في عالمنا وعالم الجن أيضًا، فقد توارثتها القبائل حتى وصلت لها وخبأتها عن الجميع، وقد قررت بعد أن تأكدت من إخلاصه لها أن تهديه إياها، بالإضافة إلى أنها لم تجرؤ أو أحد من أفراد قبيلتها قديمًا منذ آلاف السنين أو حاضرًا أن تفتحها، خوفًا من أن تكون لعنة أو مكيدة لحبسهم بداخلها، لأن من كتبها كان عليمًا بهم وبكيفية القضاء عليهم وطرق تعذيبهم جيدًا. وتحدثت معه باستفاضة عن ما تعرفه عن أصل مخطوط الكنز.



ولكنها قبل أن تسلمه له حذرته ربما يكون المخطوط سبب سعده وامتلاكه الكنوز وسلطان الدنيا ولكل ما تتوق النفس لرؤيته يومًا، أو أنه سيكون سبب لشقائه هو وبني جنسه، ولكنها أكدت له أنه في كل الأحوال هدية لا تُقدَّر بثمن!



(٥)

ظلّ المخطوط تحت قبضة «يوكي يو» عدة أيام؛ لا هو يطرح أسئلة عنه ولا يقوم بفتحه ولا يعيده لها ويرفضه من البداية، حتى ألحّت هي بالطلب حتى يقوم بفك ربطة المخطوط، فهنا طلب منها أن تسرد عليه ما قيل عن مخطوط الكنز وتداولته قبيلتها من قديم الزمان قبل أن يفتحه، فاستجابت «عائنة» في لحظتها وقصّت عليه بالتفصيل:

«كان هناك سلطان يحكم الكثير من البلاد أُشتهر بين قومه منذ صغره بحسن أخلاقه وطيب لسانه الذي ورثه من أبيه، وتوّجه القوم سلطانًا وهو ما زال صغيرًا لحكمته وصواب رأيه والرؤيا المستقبلية للأمور، حتى كثرت الأقاويل حول أنه يرى الغيب وأن له معاونين من العالم الآخر، عالم الجان، كانوا يصعدون للسماء يسترقون السمع ويأتونه بالغيب وأصبحوا بمثابة جيش له، منهم من يخلص له العمل ومنهم أيضًا من يحمل له حقدًا وعداوة وينتظر اللحظة التي تحين للانتقام منه أو من آل عائلته، وهذا لأنه كان يقيد الظالم منهم وصاحب الخطيئة ومن يتعدى منهم على بني الإنس، ويلحق لعنة بهم.



قاد السلطان الحكيم جيشًا عظيمًا أيضًا من بني الإنس، ويُقال أيضًا أن الطيور لبّت طلباته. ومن حكمته أنه كان يتفقد أمور جنوده بشكل دوري، وذات مرة وهو يتنقل بينهم ويسمع شكاوى البعض لفت نظره غياب أحدهم، وأن هذه المرة الثالثة في الآونة الأخيرة لا يراه أو يسمع خبرًا عن مقتله، فنادى القائد وسأله عنه فأخبره بأن والده مريض وطاعن في السن ولا يقدر على الحراك وأوشكت أيامه في الدنيا على النفاد، والجندي المذكور هو الابن الوحيد فخشى أن يتركه فيموت وحيدًا فأرسل مكتوبًا يستعطف القلوب لأن يستأنس وحدة والده حتى آخر أنفاسه.

فهمَّ السلطان الحكيم من مجلسه وركب فرسه وخلفه اثنان من جنوده، وسأل عن موقع الرجل وانطلق إليه.

حينما وصل السلطان وجد الأب باهت اللون من تقدم السن ويلفظ أنفاسه بصعوبه ولم تعد لديه من الصحه التي تعينه على الحركة، فجلس حضرة السلطان بجواره وواساه ولاحظ أن واحدة من عيني الرجل لا يبصر بها، فسأله السلطان متعجبًا:

– ما السبب الذي أدى إلى خسارة عينك؟



– إنها قصة طويلة أخشى على حضرة السلطان أن يملّ منها.

– لا تقلق، أنا أريد أن أسمعها وبرويّة، فلن أبرح المكان إلا في الصباح.

فاستنشق الرجل نفسًا طويلًا بصعوبة ثم حكى:

– إنه في يوم من الأيام كنت على سفر ومررت على قرية صغيرة وحططت على سور تلك القرية الذهبية، فهي كانت ذهبية بمعنى الكلمة لأن كل ما فيها مصنوع من الذهب، وما هي إلا لحظات حتى رأيت ذلك الرجل وقد ذبح تلك الناقة ودعاني للأكل منها وذهب عني ليتسنى لي الأكل براحتي. وبعدها رحلت ومرت السنين ورجعت بي الأقدار إلى هذه القرية مرة أخرى وحططت على سورها ولكنها هذه المرة ليست ذهبية مثلما رأيتها أول مرة، بل كانت فضية وكل ما بها فضي، وقد رأيت نفس الرجل وذبح لي هذه المرة خروفًا وبعد ما أكلت منه رحلت. عادت بي الأقدار بعد فترة من الزمن إلى نفس القرية وإذا بالقرية كلها من حديد ووجدت نفس الرجل وذبح لي دجاجة وبعد أن أكلت رحلت كعادتي. وبعد فترة عادت نفس الكرّة ومررت للمرة الأخيرة على القرية فإذا بأسوارها وبيبانها من الخشب ورأيت نفس الشخص ولكن هذه المرة لم



يقدم لي شيئًا بل قام بأخذ حجر من الأرض ثم رماني به وقد أصاب عيني وفقعها.

فقال له السلطان وكله فضول يعرف ما حل بالقرية وكيف تحولت من ذهبية إلى خشبية:

– أتتذكر محل هذه القرية؟

– نعم حضرة السلطان.

فأمر السلطان جنوده بأن يحملوا العجوز على الفرس، وتقدموا والسلطان على فرسه خلفهم حتى وصلوا إلى موقع القرية فلم يجدوا أي أثر للقرية ولا سكانها، فقد دفنتها الرمال وإذا بالسطان ينظر للسماء فتأتي ريح قوية هبّت عليهم حتى أزالت الرمال وبدأت تظهر بداية معالم للقرية.

وجدوا هناك بئرًا، وحينما اقترب السلطان الحكيم منه سمع صوتًا بداخله ولمح فيه خيالًا لحيّة كبيرة، فعاد أدراجة للوراء ثم توقف وسمع أحد معاونيه من عالم الجن يهمس في أذنه قائلًا:

– اسمها الحيّة «لس»، واحرص أن تبتعد عنها فهي حيّة مسمومة وبداخل جسمها جن ملعون هو وقبيلته كلها، وكان ملك هذه القبيلة له يد في



وفاة ابنك سيدي السلطان وهو ما زال جنينًا في بطن أمه، وهذه الحيّة قامت بمص دماء سكان القرية ونهشت كل خير عليها وكل خير في نفوس ما تبقى من سكانها.

توقف السلطان مكانه وتذكر هذه القبيلة التي حاولوا أن يأذوه بالسحر منذ زمن في مُلكه، حينما شاعوا بين الناس أن عقله مُسّ بالجنون، وكادت حيلتهم تنجح ولكنهم في النهاية فشلوا. ثم ركز نظره على البئر لمدة دقائق ثم تقدم واقترب منه وقام بإدخال يده برويّة حتى يُشعرها بالأمان وكان بجسم الحيّة علامة، وباتت كلما أدخل يده في البئر أكثر كلما ظهرت بجسمها أكثر وبحذر حتى تلتهمه في غمضة عين، إلى أن بانت علامتها أي أنها أخرجت نصف جسمها من البئر لتستعد لالتهام ضحيتها، وفي لحظة سحب السلطان سيفه من الغمد وضربها على رأسها وقتلها وقام بأخذ أنياب الحيّة «لس» ووضعها على مدخل بوابة القرية، وبات اسمها منذ حينها «ناب لس».

نجح السلطان في التخلص من جسد الحيّة المسموم ولكنه لم يتخلص من الجن الملعون الذي كان بداخلها وتركها قبل أن يتمكن منها الحكيم بسيفه، وقد توعد هذا الجن بأن يراقب السلطان أينما ذهب حتى تحين له الفرصة وينتقم للحيّة «لس»، ولكنه كان يراقبه من بعيد خوفًا أن

يشعر به فيقوم بسجنه ويقيده داخل أيقونة مثلما فعل من قبل بقبيلته.

وذات مرة كان يجلس السلطان داخل المحراب فاختلس الجن النظر من بعيد حتى رآه وهو يكتب مخطوط الكنز ويختمه بخاتمه، وظل يترقبه ذهاباً وإياباً حتى رآه وهو يأتمن كبير وزرائه على المخطوط ويوصيه بأن لا يخرجه من مخبئه إلا بعد مماته، حتى الوزير لم يعلم ما فحوى المخطوط غير أنه مخطوط الكنز، أي أنه السبيل لكنوز وخير كثير رآها حضرة السلطان منذ زمن وهو يمر على البلاد وانفتحت أمامه جدرانها، ولكن عيناه لم تبصر نهاية الكنز فقرر أن يدل أحداً بعينه من بني جنسه سيأتي بعد قرون في زمن يشح فيه الخير في البلاد وفي نفوس العباد.

مات السلطان الحكيم وبعد عام من مماته انتشر خبر الوفاة للإنس والجن، وحينها تجرأ الملعون من إصابة الوزير بلعنة الخيالات حتى لقي حتفه، وبعدها تمكن من سرقة المخطوط واحتفظ به ومن بعده أبنائه وسلالته، وظل المخطوط يتنقل من قبيلة لأخرى ولم يجرؤ أحد منهم أن يفتحه، وخاصة بعد معرفتهم أنه يعود لزمن السلطان الحكيم، خوفاً أيضاً أن يكون علم بأمر الملعون وكتب له لعنة في المخطوط يحبسه بداخله هو ومن يتبعه، فاكتفوا بأن يتوارثوه بينهم ويتناقلون



قصته حتى انتهى به الحال مع «عائنة» ومنها إلى يد «يوكي يو».



(٦)

تردد «يوكي يو» كثيرًا قبل أن يفتح مخطوط الكنز وخاصة بعد ما سمعه من «عائنة»، ولكن ظل صوت الفضول الذي بداخله يلحّ عليه، إلى أن قام بفك الخيط المحكم عليه من الخارج.

بمجرد أن انفكّت العقدة انبعثت منه رائحة بعثت في نفسه الأمان والسلام. كان المخطوط عبارة عن قطعة مستطيلة من الرقوق «جلد حيوان» رائحته عتيقة، ثُنيت طياته في شكل أسطواني منذ قرون. وجد صعوبة حتى تمكن من استقامته.

كُتبت كلمات المخطوط باللغة السامرية التي قامت عائنة بتعليمه إياها حتى يتمكن من قراءة ما بالمخطوط خشيةً أن تقرأها هي فتكون بمثابة لعنة للقضاء على الملعون سابقًا، وتكون من نصيبها هي بعد كل هذه السنين.

انبهر بوضوح الرسم، فبرغم القدم فإنه لا يوجد تداخل بين الكلمات، والحروف واضحة، القسمات متناسقة في حجمها وترتيبها، كُتب من ماء الذهب الخالص.

يتلخص محتوى المخطوط في بعض الرسوم والكلمات، أولها رسم لتمثال رجل يجلس على



كرسي ويعلو رأسه تاج، ثم رسم لخاتم يأخذ رأسه شكل نجمة سداسية وبجوارهما رسم لمفتاح يعلو مقدمته رأس طائر، وأسفلها رسم لرجل ومكتوب بجواره عبارة تعني أنه الحفيد المختار وقدره من اسمين، ثم في نهاية المخطوط رسم واضح وصريح وكأنه خطّ الأمس. في البداية رسمٌ لمكان يتقدمه أربعة رجال يجلسون وخلفهم جدار كالجبل، ثم خطٌ به اعوجاج مرة أسفل ومرة أعلى، يمر بالبلاد والبحور والجبال حتى يصل في النهاية إلى صخرة، ومكتوب فوق هذا الخط بين البداية والنهاية «من السبيل إلى البقعة المقدسة»، ويختم المخطوط ختم يتخلله بعض الحروف المبعثرة غير الواضحة.

وبعد أن قام بفك المخطوط تأكدت «عائنة» من خلوّ المخطوط من أية لعنة، ولمعت عيناها من التمني، وطمعت في الكنز الذي هو لها هي وبني جنسها في الأصل، ولكنها لم تأمن للدرجة التي تجعلها تحمل همّ الوصول للكنز بمفردها، وإذا كان المخطوط به قدر من السوء فبني الإنس أولى به، فهم منبع لا ينضب من الطمع. وقامت بإخباره بأنها ستقوم بخدمته هي وأعوان كثيرون معها إلى أن يحصل على الكنز ويقتسمه بينهما، نصفٌ له ونصفٌ لها ولقبيلتها من الجن، فكما ترددت أسطورة المخطوط بأنه يحمل سلطة لم تُشهد على مر الزمان.



لم يكن لدى «يوكي يو» من الدافع القوي والحماسة والعمر أيضًا ما يحمله على خوض هذه المقامرة غير المضمونة، التي تتطلب الكثير والكثير من البحث والجهد. وحينما رأى في عينيها الطمع والتمني خشى من تقلبها عليه ووعدها إذا لم يحالفه الحظ سيحرص على وجود الشخص الأمين الذي سيقوم بمساعدتها للحصول عليه، وسيظل هذا العهد قائمًا بينهما، أما الآن يجب عليه أن يحفظ المخطوط في مكان آمن ولأنه خشى من أن يخفيه في نفس محيطه عسى أن تكون زوجته أفشت بسره عن علاقته ب«عائنة»، وأن يكون أحد ما ينبش خلفه ويترصد لحركاته. خشى أيضًا أن يعيده لقبضة «عائنة»، وكما ناداه عقله بأن الاحتياط واجب وأن لا يضعه في أحد معابد الشنتو اليابانية حتى يكون بعيدًا عن دائرته ونطاق كل من حوله. فبعد بحث طويل عن المكان المناسب للمخطوط قرر أن يسافر إلى إيطاليا ويخفيه في مجمع ديني، ولكن على غير معتقداته الشنتوية، وأن «عائنة» هي من ستتولى مهمة نقل المخطوط إلى هناك خوفًا من حمله معه إلى المطار، وهذا ما حدث في اليوم التالي.

استقل أول طائرة إلى إيطاليا ومنها إلى كنيسة الفاتيكان الكاثوليكية بفينسيا، وأخبر أحد حراس



الكنيسة أنه يريد أن يقابل الكاردينال أو أحد أساقفة الكنيسة لأمر هام جدّاً لا يقبل التأجيل.

ومنه أخبر الحارس أحد شمّاسة الكنيسة، وبالفعل رحبوا به وجلس مع أحد الأساقفة الذي اطّلع على المخطوط وسأله بدوره من أين له بهذا المخطوط، ولكنه رفض أن يتكلم وعلّل ذلك بأنه يخاف على عائلته من انتقام الأرواح الشريرة التي تحرس المخطوط، وقام بتحذير الأسقف بأن المخطوط به لعنة ويحمل سحراً أسود، ويريد أن يحفظه هنا في الكنيسة المبروكة ليحمي البشر من شره، وأنه لم يذهب به إلى أحد المعابد لأن أحداً ما أخبره بأن الكنيسة هنا بها مكان للكتب المحرمة والتي يحكمها الشر، وأن الكنيسة محاطة بالكهنة المعنيين بمنع وصول شر مثل هذا المخطوط إلى الناس، وما ساعده على ما يقول أن المخطوط لا يحمل كلمة واحدة تدل على مغزى المخطوط وهو الكنز.

لم يقتنع الأسقف بما قاله «يوكي يو»، ولكنه لم يجد ما يمنعه من حفظ المخطوط في الكنيسة، بالإضافة إلى أن المخطوط بكل تفاصيله يحمل ملامح الأهمية وعدم الزيف، بدايةً من الجلد المكتوب عليه وماء الذهب الخالص التي كُتبت به مفرداته، وغير ذلك ما يحمله المخطوط بالداخل من شارات تعني الوصول لشيء مهم، ولكنه لم

يفصح عنه مباشرة ولكن من يدري لعلّ وقته لم يحن بعد.

وبالفعل رحب بطلب الرجل الياباني وأرسل المخطوط المجهول مع أحد خدام الكنيسة إلى الكهنة وحذرهم أنه ربما يحمل روحًا شريرة بداخله كما أخبرهم مودعه.

فقاموا بحفظه بجوار كتاب يحمل نفس التحذيرات يسمى كتاب المفتاح الأصغر أو كما يلقبونه كتاب الاستدعاءات، في دليل الكتب المحرمة، وقاموا برش الماء المبارك عليه.

منذ أن غادر «يوكى يو» البلاد ولاحظ الجميع غيابه غير المعهود وتساءلوا حتى ذاع خبر سفره في القرية، ومن حينها وصديقات حفيدته «ماشا» التي كبرت قليلاً وأصبحت في مقتبل عمر المراهقة، وهم يكيدون لها المكائد والأذية لأن جدها الساحر غادر البلاد فلن يستطع أحدٌ حمايتها أو الثأر لها بعد الآن. صبرت الفتاة على أذيتهم كثيرًا كما كان يحثها أبوها دائمًا أن تتجنب المشاكل ولا تحتك بالآخرين، ولكن الطبع يغلب دائمًا، ولن تنتظر حتى يعود جدها لتعود كرامتها المهدورة، حينما حلّ الظلام ارتدت معطفًا سميكًا لتتحمل البرد القارس ثم تسللت خارج المنزل ومعها حقيبة بها مصيدة الفئران الخاصة بوالديها ومرت على مكب النفايات



وأخذت منه أحد براميل الزيت المعدنية متوسطة الحجم واتجهت إلى مكانها المفضل؛ الحديقة التي تشبه الغابة الموجودة على أطراف القرية ومكثت هناك طيلة الليل، ولم تَعُد إلا مع ضوء الصباح حتى لا يلحظ أبواها غيابها وعادت لغرفتها وارتدت ملابس المدرسة، واتجهت كعادتها وحيدة في الطريق وفي الفصل، وجاء الأصدقاء وبدأ الاحتفال على حفيدة الساحر ولكن لم تسكت «ماشا» هذه المرة، لكنها تظاهرت سريعًا بالخوف والرعب والعجز الذي وصل لحد البكاء وهذا لم يشهده أحدٌ من قبل على الفتاة لدرجة أن بعضهم تعاطَف معها واقتربوا منها ليسألوها عن السبب ومنهم يطمئنها بأنهم لن يتعرضوا لها ثانيًا فقالت «ماشا» وهي ترتجف:

– جدي رحل ولن يعود مرة أخرى وترك ذهبًا كثيرًا جداً في مكان على أطراف القرية وبجواره فوهة مخفية لا يعلم مكانها إلا أنا، حتى أمي وأبي لا يدركان هذا، وقال لي كلما رميتِ في الفوهة بعض من الحلي الذهبية وصدر من الفوهة صوت عالٍ؛ فهي بهذا قد قبلت قرباني وتسمح لي بأن آخذ من الذهب ما أشاء، غير ذلك حذرني ألا أقترب من الذهب ولكني خائفة حتى الموت بأن أذهب هناك بمفردي ثانية، وخاصة أن أبويّ لن يقبلا شيئًا من مخلفات جدي.



هنا لمعت أعين الفتيات وغادرت القائدة لهن وهن خلفها واتفقت معهن على أن يذهبن معها ليلاً ويقُمن بخداعها ويأخذن هن كل الذهب ويتركنها تموت خوفًا هناك ولن يعلم أحدٌ عن سرهم حتى إن بعضًا منهن اقترحت بأن يحضرن معهن أساور وحلي ذهبية كثيرة من منازلهن دون علم والدتهم ويعودون لها بالسبائك الكبيرة، فيا له من مكسب مضمون وأذية لا مناص منها.

ذهبت إحداهن وأخبرتها أنها ستذهب معها ليلاً؛ لأن قلبها رقَّ لحالتها المسكينة، فظهرت على وجه «ماشا» علامات الفرح والشكر وهي تقول:

– لا أعلم من دون مساعدتك لي ماذا كنت أفعل سأنتظرك ليلاً عند مدخل الغابة المترامية شمالاً.

مع منتصف الليل تجمعت الفتيات هناك وكانت تسبقهن «ماشا» بساعة، ولكنها تقف متخفية خلف شجرة حتى يكتمل عدد المتطفلات منهن، ثم خرجت لهن وتعلو وجهها نظرة بلاهة مع غبطة لأنهن أتين لمساعدتها وهي تقول أتبعنني، سأريكم الذهب الأول ثم سنذهب للفوهة نقدِّم القرابين ونعود ونأخذ كل الذهب.

وبالفعل وقفت على بُعد مترين من الذهب وقامت بالإشارة عليه من بعيد وهو يضيء في عتمة الليل،



وحينما رأينه الفتيات تهامسن:

– ما كل هذا الذهب؟

– إنها فعلاً حفيدة ساحر.

– يا له من ذهبٍ كثير ستفرح أمي به كثيراً.

وهنا قطعت «ماشا» الهمهمات وقالت:

– هيًّا بنا لنذهب للفوهة.

وبالفعل ظلت تدور بهن في نفس الدائرة حول ثلاث شجرات فلا أحد أعلم بأبعاد الغابة مثلها، ثم توقفت وقالت: هنا سنقف وكلٌّ منا ترمي سوارًا أو ما شابه، وكلما كان القربان كبيرًا يحدث صوت أعلى كلما كان نصيبنا من الذهب أكثر.. وابتدأت هي وقامت بفك السلسلة حول رقبتها وقامت بإلقائها على مسافة متر أمامها، وبالفعل أحدثت الضجة التي تنتظرها ثم صاحت بفرح:

– ها أنا ذاهبة لآخذ نصيبي.

وبالفعل رأينها وهي تحمل كتلتين كبيرتين من الذهب وتهرول من السعادة، وقامت أخرى بعدها سريعًا لتلحق بها لمكان الذهب والأخرى والأخرى وكلٌّ منهن تأخذ ما تستطيع من كُتَل الذهب



حتى وصلن إلى منازلهن بعد معاناة لأن الذهب كان غاية في البرودة فتخيلن أنه من شدة الصقيع في الخارج، وسريعًا ما اعتلين الأسِرة حتى غفت العيون.

في الصباح وجدت «هارونا» ضجة كبيرة أمام منزلها فوجدت الفتيات ومعهم الأهالي يطالبون بالحلي الذهبية التي أخذتها ابنتها «ماشا» من الفتيات.

فذهبت الأم إلى الفتاة وسألتها عما حدث، فأنكرت ما يقولن وخرجت لهن وبينما كانت تجادل معهن وظلت الفتيات يقسمن بأنها أعطت لهن كتلاً ذهبية، وحينما استيقظن وجدنها تحولت إلى فئران ميتة.. وهنا رأين «يوكى يو» عائدًا من سفره وأتى حتى يرى حفيدته وابنته وهنا صمت الجميع وذهبن خوفًا منه.

ظلّ «هالبيرن» يتحدث مع ابنته حتى تعترف بما قيل ولكنها أنكرت حتى جاءت الأم وهي تصيح:

– ما كل هذه الدماء الموجودة في المصيدة يا «ماشا»؟ أنا متأكدة بأن لك دخلاً بما قالوه.

وهنا ظلت الفتاة تبكي بحرقة وهي تعاتب أمها:

– انت لن تصدقينى ابدا يا امى مهما قلت



صاح جدها في الجميع بأن يتركوها لحالها ويبتعدوا، يكفي ما تتحمله من تنمر من الفتيات لها، وجلس بجوارها وهو يربت على كتفها ويهمس:

– كيف فعلتِها؟

– تفاعل فيزيائي يا جدي أكثر من بسيط يتحول الماء إلى ثلج بأسرع ما يمكن ويظل هكذا فترة طويلة حتى تتغير درجة الحرارة، وأضفت عليه لونًا ذهبيّا لامعًا وأغرقت فيه الفئران التي اصطدتها من الغابة، وحينما استيقظت الساقطات وحلّ الدفء على الهواء ذاب الثلج وبقيت الفئران الذهبية.

ردّ عليها وهو يحرك رأسه فخورًا بها:

– على الأقل بقي لهم شيء ذهبي.

ابتسمت له وردت:

– الذهب مدفون في حديقة منزلك.

هنا أخذها في أحضانه وكرر تحذيره لابنته وزوجها ألا يمسها أحدٌ منهم بسوء.

(٧)

بعد مرور عدة سنوات، تزايدت ثروة «يوكي يو» وأصبحت بلا سقف وملأت صناديق من السبائك الذهبية دُفنت تحت أرض منزله بأمتار عدة.

كَهَل الرجل وتمكن المرض من جسده وقد أخبره الطبيب أنه لم يعد له في الدنيا إلا أيامًا معدودة، وقد تمكن السرطان من نهش ثمانين بالمائة من معدته وأجهزتها، هنا قرر أن ينقل ثروته وسر الكنز ليد أمينة تشبهه تمامًا في حب السلطة والمال، بل وأكثر فهي شغوفة للوصول لأبعد الحدود وقد ترجّت جدها كثيرًا أن تنتقل للعيش معه وأن يعلمها السحر، ولكنه كان يأبى خوفًا عليها من غدر «عائنة» حتى لا تحاول التخلص منها كما قضت على جدتها «ميزاكي».

بلغت حفيدته «ماشا هالبيرن» عامها العشرين، أي أنها من المفترض أن تُقبل على متع الدنيا وترغبها إلا أنها كانت ترفضها جميعًا، ولم تكن اهتماماتها مثل فتيات عمرها، حتى إنها لم تدخل علاقة حب واحدة مع شاب، فدائمًا لسان حالها أن لديها هدفٌ أسمى وأكبر من هذه التفاهات. وتمركزت كل اهتماماتها في البحث الدؤوب في كل شيء وأي

شيء، والقراءة في شتى المجالات وأصبح لديها عقل يفوق عمرها بكثير.

ذات صباح استدعاها جدها إلى بيته وكانت هذه من المرات القلائل التي يدعوها إلى منزله، فإما إن كان يذهب ليراها عند أمها أو في الحديقة للتنزه معها.

جلست بجواره ممسكةً يده وقد اشتد عليه المرض وكان يتكلم بصعوبة، ولكنه حاول أن يتماسك إلى أن قصّ عليها حكايته مع «عائنة» منذ أن رآها في بيت عمه.

حاولت الفتاة أن تتحكم في تعابير وجهها في بادئ الأمر من الدهشة والفرح معًا، خشية أن يتوقف جدها عما يقول، ولكنها حينما سمعت خبر السبائك الذهبية والألماظ الموجود تحت البيت فشلت في ربط جأشها وكاد يسقط فكها أرضًا، وتراءت أمامها دنيا من المثيرات والمعاني لا حدود لها، فالثروة والسُّلطة هما حلم وهدف كل إنسان عاقل فى الكون.

ولكن جدها لم يتوقف عند هذا الحد وحكى لها تاريخ مخطوط الكنز منذ البداية من الملعون إلى أن وقع في يده، وقام برمي طُعم لها أكثر بريقًا



وسلطة مما تحمله أرض المنزل، وهنا غرقت في سحر ما يصف، ثم سكت ونظر لها وأخبرها:

- هذا ما ستقومين بالبحث عنه وستقوم شريكتك في الرحلة بتعليمك لغة المخطوط، ولتتبعي حدسك وعقلك، فأنت خليفتي التي ستكمل المشوار الذي بدأت. ولا تتبعي الهوى أينما كان، ولتضعي الكنز نصب عينيك ولتخطي خطوات محسوبة للوصول لهدفك ولا تسمعي صوت نفسك بل صوت القدر، ولا تغفلي عما يضعه القدر في طريقك ولو حتى كانت خرقة بالية، فلن يضعها القدر أمامك إلا لسبب قد قُدّر سلفًا.

ردت «ماشا» في غبطة:

- هذا شرف لي يا جدي، فأنت مثلي الأعلى؛ منذ أن كنت طفلة وأنا أتمنى أن أدخل عالمك السحري هذا، وأعدك أن أكون خير خلف لأعظم سلف.

اطمأن جدها حينما رأى لمعة عينيها وحماسها، ثم أعطاها لوح استدعاء روح الكوكوري وجه الخير عليه، وأنها تستدعيها حينما تريد المساعدة، ثم أخبرها بمكان المخطوط وهنا ظهرت «عائنة» بجواره، لم ترمش «ماشا» ولم ترهب للحظة ونظرت لها نظرة مطوّلة في عينيها القاحلتين نظرة تحدّ لتخبرها، وتؤكد لجدها أن الاختيار الذي وقع عليها

لم يأتِ من فراغ وأنها هي الشخص الأجدر في العالم بهذه المهمة والوصول للكنز.

وهنا تدخل «يوكي يو» ليقطع نظرات التحدي بين الفتاتين وقال:

– سيكون هناك عهد بينك يا «ماشا» وبين «عائنة»؛ هي ستكون خادمتك في كل ما تأمرنيها به هي وأعوانها، فالعهد الذي بيني وبينها أمرتها بأن ينتقل لك بالتبعية بعد وفاتي، وبالمقابل حينما تجدان الكنز سيكون مناصفة بينك وبين بني جنسها، وإذا خلفت إحداكما العهد يحق للأخرى إيذاء الثانية والتخلص منها وهنيئًا لها بالكنز.

تغيرت ملامح «ماشا» حينما سمعت أن الكنز سيكون مناصفة بينهما، وارتفع حاجبها الأيسر لأعلى ولكنها أومأت برأسها بالموافقة على العهد وشرطه.

وأخبرته «عائنة» بدورها أنها لن تنقض العهد وسيكون جسد «ماشا» وسمعها ونظرها هم مسكنها وكأنهما روحان في جسد واحد بعد وفاته.

وأكملت «ماشا» بعد زفير طويل:



– نعم، لن تتحرك إحدانا إلا والأخرى تعلم بخطوات وهمسات الثانية.

* * *

بعد مرور شهر من وفاة «يوكي يو» ذكرت الصحف أنه تم انقطاع مفاجئ فريد من نوعه في كهرباء كنيسة الفاتيكان بفنيسيا، وقام مجموعة من اللصوص المتخفين بسرقة مخطوط مهم كان قد اطّلع عليه بعض علماء التاريخ والآثار وأوضحو أنه يرجع إلى العهد القديم، ويحمل المخطوط بعض الشارات التي تؤدي إلى شيء ما لم يُذكر اسمه ولا ماهيته في المخطوط. وذكر الخبر أن الرجل الذي أودعه الكنيسة حذر أن به لعنة وروحًا شريرة تسكنه. والجدير بالذكر أيضًا أنه كان بجوار المخطوط يوضع كتاب «المفتاح الأصغر»، وتعجب سكان العالم كيف للسارق أن يتجاهل هذا وقيمته الخارقة في عالم السحر بعد أن حملوا عبء الوصول لهذه البقعة الصعبة من الكنيسة.

بعد مرور قرابة الخمسين عامًا...



(٨)

الدكتور «سليم أنس داوود عبد اللّه»، في أواخر العقد الثالث من عمره، يتمتع بقدر كافٍ من الوسامة والرجولة في مظهره الخارجي، شعره أسود كثيف، خمري البشرة، حليق اللحية.

هو مساعد رئيس قسم الأمراض النفسية والعصبية بكلية الطب جامعة القاهرة. يهتم الدكتور بالعلاقة الوطيدة بين الإنسان وبين العالم غير المرئي، أي علم الروحانيات الذي يسمى «الباراسيكولوجي»، فمن وجهة نظره – كما أنها كانت رسالة حصوله على الدكتوراه – أن الإنسان يشعر بجاذبية شديدة تجاه المجهول وتجاه كل ما لا يراه أو يلمسه، وأن هناك عالمًا غير مرئي لنا يشاركنا في عالمنا المرئي. وسبب إيمانه بهذا رغم درجته العلمية التي من المفترض أنها قائمة على التحليل والمنطق، لازمته أحلام يقظة منذ نعومة أظافره تتحقق معظمها، ربما ليست بنفس التفاصيل ولكن الأماكن التي يراها تتجسد في الحقيقة أو الأشخاص وربما نفس الأحداث تتم في أماكن مختلفة عن الحلم، حتى إنه رأى لحظة وفاة أبيه وأمه قبل أن يرى ذلك في الواقع، وهذه الأحلام قلّت شيئًا فشيئًا حينما كبُر ولكنها لم تنعدم.



ترجع أصوله إلى نصف مصري من أبيه وجده، والنصف الآخر لبناني لجدته اليهودية التي تزوجها جده الأكبر الذي اعتاد أن يزورها من حين لآخر إلى أن توفيت. توفي الأب بعد صراع مع المرض ولحقته الأم بعدة سنوات، وانتقل للعيش مع عمته العاقر التي اهتمت به كابنٍ لها. يقطن من صغره في القاهرة، وبالتحديد في شبرا وتعد منطقة من أكثر أحياء القاهرة حياة وشعبية، وحتى بعد أن تزوج جارته المسيحية «مَرام» والتي ترجع أصولها إلى غير مصرية، فوالداها من أصل يوناني ولكنهما يقيمان في مصر منذ أجيال سابقة ترجع لجدود الجدود، فحين تراهما لا تفرقهما عن أقباط شبرا وضواحيها، من اللهجة والألفاظ والتحفظ أيضًا. ووصلت مصريتهم درجة أنهم برغم اختلاف الطوائف المسيحية التي ينتميان إليها هما والمصريين أنهما من حين لآخر يقومان بزيارة كنائس شبرا والتعبد فيها، إلا الأم، فهي كانت متشبثة بأصولها وتداوم على زيارة كنيسة الأرمن واليونانين بمصر القديمة، حيث تنتمي لطائفتها وجنسيتها وقد دُفن هناك أبواها وجدودها في المقابر الملحقة بها. ونسبة لهذه الأصول لم تجد من والديها معارضة في الزواج من مصري مسلم، ورحب به أيضًا لأنه يرث الكثير من أبيه غير الشراكة التي كانت تجمع بين والد «سليم» ووالدها في محل الذهب، فلن تشقى معه ولا هو يحمل سببًا



للزواج منها لاستغلال مال أبيها، فهنا المصالح تصالحت على أتم وجه في خدمة إتمام الزواج رغم الاختلاف.

«مَرام» في منتصف عقدها الثالث، لا تتمتع بقدر كبير من الجمال ولكنها رقيقة الملامح والصفات وحسن الخلق مع الغير، هادئة تجبر من حولها على احترامها وتقدير مكانتها. هي طبيبة جرّاحة تعمل في مستشفى خاص. لم ينتقلا خارج حدود شبرا حتى بعد الزواج، وقاما بشراء شقة على بعد عدة شوارع من بيت والداها، فبعد وفاة عمة «سليم» التي كانت آخر ما لديه أصبحت عائلة زوجته هي عائلته الوحيدة.

أثمر زواجهما عن الطفل الجميل «أنس»، على اسم جده.

يبلغ الابن الخامسة من عمره، يأخذ من أمه رقتها ومن أبيه وسامته.

لديه نسبة ذكاء وسرعة بديهة تفوق على القدرات الذهنية مقارنة بالأطفال في عمره، كما أنه بارع في حل الأحجية والمعادلات الرياضية التي تفوق قدرته الذهنية الطبيعية في عمره.



برع أيضًا في تجسيد كل ما يراه أو يحلم ويشعر به عن طريق الرسم.

ينظر «أنس» محدّقًا إلى شفاه كل من حوله، محاولًا أن يحل أحجية ما يقولونه. يجلس عادة وحيداً يتأمل من حوله. أذناه لا تسمعان صوت الموسيقي إذا صدح، ولا بوق سيارة تحذره أثناء عبور الشارع، نعم إنها حالة الطفل الأصم الذي حُرم إحدى حواس الإنسان الخمس، ولكن رب العالمين عوضه عن حرمانه من حاسة السمع بلغة الإشارة فهي لغة الطبيعة منذ الأزل.

تعرض الطفل منذ أن كان جنينًا إلى تلف في الأذن الداخلية، أي العصب الذي ينطلق من الأذن الداخلية إلى الدماغ.

وكان ذلك سببه قلة نسبة الأكسجين التي وصلت إليه قبل أن تلده «مَرام». اكتشف الأبوان علّة ابنهما مبكرًا منذ أن بلغ شهرين، واستقرا على إجراء عملية له والتي من المفترض أن نسبة نجاحها لا بأس بها ومحتمل يكون مردودها منصفًا لهما، لأن الطفل لم يبلغ العامين من عمره بعد، ولكن كما هو حال الحياة الذي لا يتغير أتت النتيجة على غير المتوقع، لم تكن كما كان متوقعًا لها ولكن جاءت بثمار قليلة جدًا، ومع استخدام سماعات للأذن ربما يسمع القليل مع رفع مستوى الصوت كثيرًا.

ولكن هذا لم يُغنِ عن لغة الإشارة للتواصل مع العالم الخارجي.



(٩)

شمس حارقة، موج البحر هائج، تأتي نسمة هواء عليل، وامرأة مستلقية على رمال الشاطئ وموج البحر يأتي يخبط الماء في جسدها ويغمرهما ثم يتراجع الموج والماء ويتركها معه. وهو بجانبها في حاله من عدم الوعي من فرط الإحساس بينهما، أصابع يدها اليمنى مغروزة في كتفه واليسرى تحاول بها أن تستنجد برمل البحر.

– «سليم».. يا سليييييييم، استيقظ يا حبيبي الساعة تجاوزت ثمانية صباحًا، سوف تتأخر على الجامعة!

رد بصوت متقطع:

– صباح الخير.

أجابته بابتسامة رقيقة:

– صباحك حياة.

قالتها «مَرام» محاولةً أن توقظ زوجها حتى لا يتأخر عن عمله، ثم خرجت من الغرفة لتحضّر الفطور.



التفت حوله ليجد نفسه خارج نطاق الحلم بالمنظور المادي، ولكنه معنويًا وحسيًّا ما زال فيه، فأسرع الخطى للحمام محاولةً منه أن يستفيق من ذلك الحلم. وبعدها فتح الصنبور لينساب على جسده الماء الدافئ ويلتقط أنفاسه برويّة وهو يغمض عينيه تحت الماء المنسدل عليه، وإذا به يشعر بها خلفه؛ أنفاسها نفس الرائحة التي التقطتها أنفه في الحلم، فيترك نفسه ينساب معها للحظات ثم يفتح عينيه ليراها أمامه، «عائنة» الحيّة. يلتف جسدها على صنبور الاستحمام من أعلى والجزء الأمامي مع رأسها يتدلى وتنتصب مواجهةً مع وجهه، فيعود خطوتين للخلف ويزيل الماء والصابون من على وجهه وحينما يعاود النظر لا يجدها.

يلتقط المنشفة من المسند ويمررها على رأسه ثم يحيط بها خصره ويخرج من الحمام وهو يتلفت حوله يمينًا ويسارًا، منتظرًا أن يراها مرة أخرى. بالرغم من أنه من العلماء المناصرين لفكرة وجود شيء خفي لا نعلمه دائمًا يحركنا ويحرك عقولنا، ويؤمن بعلم ما وراء الطبيعة، فإنه أول مرة يتعرض لمثل هذا الموقف المباشر. يدرك من أعماق قلبه وحدسه أن هذا حقيقي وأن ما عاشه في منامه ليس مجرد حلم، وأن بينهما شيء مشترك ولكن الطبيعة لم تسدل الستار عن هذا بعد! ولكنه في



المجمل شيء يحمل نسبة من الخوف ونسبة أكبر من الغبطة، حيث أنه برهن لنفسه بشيء مادي أنه صاحب رسالة تستحق العناء عكس ما يسمعه دائمًا من زملائه المتخصصين في علم النفس بأن مكانته العلمية لا تسمح بأن يتحدث كثيرًا مع الطلبة وأن يقنعهم بالخرافات والدجل والحاسة السادسة والقوى الخفيّة.

ارتدى بنطاله الجينز غامق اللون، وعليه قميصًا أبيض اللون من قماش الكتان لطالما كان المفضل لديه، وتحتوي خزانة ملابسه من نفس القميص العديد نفس اللون والخامة. خرج من غرفته ليتناول إفطاره مع «مَرام» و«أنس»، طبع قُبلة على جبين كلٍّ منهما ثم جلس أمام المائدة.

وبعد أن فرغوا من الأكل ألقت السلام عليهما لتلحق بالمستشفى، وأوصت المربية أن تعتني بـ«أنس»، فهو ليس على ما يرام منذ أن استيقظ، وإذا استمر الحال تأخذه في نزهة إلى بيت جدته.

بعد أن رحلت «مَرام» اقترب الطفل من والده وهو يرتشف آخر رشفة من فنجان القهوة، وبدأ كعادته ليلفت نظر من يريد بكلمة «أيوة»، كان يجيدها رغم ثقل اللسان وصعوبة النطق.

فانتبه له «سليم» واقترب منه سائلًا:



– ما بك يا «أنس»؟

ابتدأ جوابه بإشارة تدل على الخوف، وبدأ في وصف شيء زاحف كبير له بريق لامع يضيء مثل الذهب، رآه أمس في غرفته، وبالرغم من الظلام فإنها كانت تشعّ وعيناها تلمعان وهي تحملق فيه بنظرة مباشرة، وقد أكمل نومه خوفًا من أن يتحرك من مكانه ليصيبه مكروه، وقد تبول في سرواله خشية الذهاب للحمام.

ارتفع حاجبا «سليم» وتباعدت شفتاه واتسع بؤبؤ عينيه وانعقد لسانه عن الكلام، ولكنه سريعًا ما خرج من دهشته ليبثّ الطمأنينة في قلب الصغير، وقال سريعًا:

– ما رأيته يا «أنس» ما هو إلا حلم، أو الأدق أنه كابوس، حاول أن تبعده عن ذهنك ولا تفكر فيه حتى لا يتملكك الخوف.

أكمل الطفل مفسرًا:

– و لكن يا أبي أنا رأيتها بعيني وهي تنظر لي، وكانت...

فقاطعه والده بصوتٍ خفيض وحركة شفتيه واضحة:



– ما رأيته ليس حقيقيًا، ما هو إلا تهيؤات.

وتمنى أن ينتهي هذا الحديث بقُبلة وضعها على يد ابنه.

رغم صغر سن «أنس» فإنه اعتاد على كلام أمه عن الجراحة وتفسيراتها الطبية وربط أبيه في كل شيء يحدث بتفسير من علم النفس أو ربطها بشيء خفي سوف يحدث.

ولكنه هذه المرة لم يستسلم للاستماع والفهم فقط، وأصر مقاطعًا أبيه:

– ما رأيته حقيقة وليس كابوسًا أو غيره، ولن أنام في غرفتي الليلة بمفردي حتى لو لم توافق أنت و«مرام».

* * *

لم يكن هذا اليوم الجيد لـ«مَرام» ولا «سليم»، كلٌّ منهما قابل العديد من العقبات سواء في الطريق أو العمل.

تعرضت هي لصدمة قوية في مؤخرة سيارتها أدت لتلف الهيكل الخلفي للسيارة ومعها انطلق الكيس الهوائي الموجود أمام كرسي السائق



بجوار طارة السواقة، لينطلق في وجهها ليلحقها بعده كدمات في وجهها ومقدمة رأسها، ومعها تعطلت حركة السيارة وقد استعانت بعربة نصف نقل لنقلها لمقر الصيانة.

ثم استقلت سيارة أجرة لتصل للمستشفى لأنها لن تستطيع أن تعتذر عن العملية الثانية، لأن المريض حالته حرجة وهي التي تعرف تفاصيل مرضه، وقد قامت من منذ ساعة عن الاعتذار عن أولى حالتها وهذه ليست من شيمها. تقف أمام باب السيارة لتخرج النقود من حقيبتها لتحاسب السائق فقام سارق يركب موتوسكلًا بانتشال حقيبة يدها، وحينها صرخت تطلب المساعدة، لحقه سائق سيارة الأجرة ولكنه لم ينجح في اللحاق به فقد دخل منعطفًا واختفى عن الأنظار، وهنا قررت العودة للمنزل فهي لن تصمد أمام عملية جراحية ستستمر ساعات، وقررت الانسحاب ورعا بأن يصيب المريض أذى وطلبت من أحد الزملاء تولي أمر العملية، وكان هذا محل ترحيب من الزملاء لأن هذا من المرات نادرة الحدوث أن تعتذر الدكتورة «مَرام» عن عملها.

تفاجأ هو الآخر بردة فعل مفاجئة من مريض كان يتابع حالته مع طبيب نفسي زميل له في عيادته، وبينما هما الاثنان يجلسان مع المريض ويدوّن «سليم» معلومات عن الحالة وأبعادها النفسية إذا



بالمريض ينقض عليه ويأخذ منه القلم الذي يكتب به ويحاول بأن يجرح به نفسه حتى نجح في عمل ثقب في رقبته، وحدث هذا في غضون لحظات ما أدى إلى استدعاء الإسعاف، ورافقه «سليم» وزميله للمستشفى ولم يغادرا إلا حينما علِما أن حالته مستقرة.

عادَ كلٌّ منهما إلى البيت منهكين وفي حالة مزاجية لا تسمح حتى بقصّ ما حدث معهما، غير أنه كان يومًا رهيبًا بكل تفاصيله وأحداثه المأساوية، فنظرت «مَرام» إلى «سليم» في صمت ثم قالت بهدوء:

– أتريد قصّ ما حدث معك اليوم؟

– أُريد مع عدم وجود مقدرة؛ عندي صداع فظيع تكاد رأسي تنفجر من الألم.

وأردف سائلًا:

– وأنتِ؟

– مثلك تمامًا، سأدخل لأستريح.

فتمتم:

– هكذا أفضل لكلينا.



– ولكن الصغير كان لديه ما يريد قصّه ولا يسمح بالتأجيل.

جلس بهدوئه المعتاد بجوار أبيه الذي كان يرمي برأسه وأحداث اليوم على ظهر الأريكة، ولم يستجب لندائه الذي قام بقوله عدة مرات:

– أيوا.. أيوا.. أيوااااا

ومعها كان يشد طرف قميص والده عدة مرات حتى وقعت عيناه على الورقة التي يحملها «أنس» فاعتدل في جلسته وأخذها منه وسأله مضطربًا:

– من أين لك بها؟

قام الآخر بالإشارة على نفسه.

– أعرف أنك من قام برسمها ولكن، أأأأقصد هي بعينها!!

اندهش «سليم»، فهي طبق الأصل من الحيّة التي رآها بأمّ عينيه في الحمام، ولأن يد «أنس» ماهرة في نقل التفاصيل بحذافيرها فقد قام برسم عينيها القاحلتين بأدق التعابير، فكان شكلها يثير الرعب لمن ينظر لها بتمعن. وأكمل الصغير ما



يريد حكيه وقد بدا الذعر على وجهه وبدأ بتحريك أصابع يده ليقول:

-حينما غفوت في الظهيرة رأيتها مرة أخرى يا أبي، رأيتها وهي تلتف حول جسدك وتقتلك وتقوم بغرز أسنانها في رقبتك وتمتص دماءك لآخر قطرة في جسدك حتى يتحول لونك للأزرق الباهت.

نظر إليه «سليم» في صمت لدقيقة ثم قال له في هدوء وهو يربِّت على كتفه:

- لا تقلق يا «أنس»، أنا معك وبخير ولن يصيبني مكروه.

حاول الصغير أن يبتسم ولكن سقطت دموعه على خده وهو يخبره:

- أنا خائف منها وخائف عليك أكثر يا أبي.

كلماته كان لها صدى على شعور أبيه الذي تيقّن من أن هناك خطر ما يدق باب بيته، فقام برفع ذقن «أنس» واقترب منه وقال:

- أنت بطل يا «أنس»، الأبطال فقط هم من يشعرون بالخوف، ولكن لا بُدَّ أن تتعامل كالأبطال مع خوفك، فهو اختبار إما أن تجتازه بتحدٍّ ونجاح أو



سيغلبك هو ويقضي عليك، هل أنت جاهز يا بطل حتى تقضي عليه؟

رد الطفل بوجه مستثار رغم الدموع التي لا زالت تلمع في عينيه:

– نعم.. أنا «أنس سليم» بطل الأبطال.

هنا ابتسم «سليم» وضمه إلى حضنه وتابع حديثه له في هدوء:

– إن الإنسان مثلما يعيش في صحوه ما يسرّ وما يحزن، أيضًا يعيش هذا في منامه وداخل أحلامه حينما يكون في اللا وعي، فلا تدع لهذه الأفكار التشاؤمية مجالًا لتتمكن من عقلك وتشعرك بالخوف.

ابتهج وجه الولد وانفرجت أساريره بعد أن كان عابسًا، وطبع قُبلة على خد أبيه، فلطالما شعر بالزهو من حديث أبيه معه، حتى لو أن عقله لم يستوعب كل المقصود، لأن «سليم» يقصد دائمًا أن يزرع في داخله أنه طفل فريد يتميز بذكاء لن يحظى بمثله أبناء جيله.

ثم حمله بين ذراعيه واستلقيا على السرير بجوار «مِرام» وانخرط الثلاثة في نوم عميق، كلٌّ من

الوالدين على طرفي السرير، بينما غفا الصغير في الوسط ممسكًا بذراع أمه التي غفت مرتدية نظارتها ونسيت نزعها من كثرة الإرهاق.

بينما واحد منهم لم تستسلم روحه للنوم مثلما فعل جسده، فقد جاءته حورية الحلم مرة أخرى ممسكةً بيده حتى سحبته معها لداخل البحر حتى غطت الماء نصفيهما السفلي، وسرعان ما صفت نفسه ودفن وساوسه وسلم لها وارتوت منه مرة أخرى ولكن بدلال وحب أكثر، حتى إنه حينما استيقظ ظل في السرير دون حراك يحملق في سقف الغرفة ما يزيد عن نصف ساعة، محاولًا أن يخرج من حالة النشوة لينخرط في العالم المادي المحيط به. فقام واتجه ليستحم وفتح رشاش الماء الساخن وتحمم وسط بخار متكاثف وهو يدندن أغنيةً لعبد الحليم ثم انتهى وارتدى ملابسه، ومثله «مَرام».

وحينما جلسا ليتناولان الإفطار حكت له ما حدث معها أمس، وطلبت منه بأن يمر على مركز الصيانة ليتابع تصليح سيارتها، وسألته عما حدث معه البارحة ولكنه كان ما زال تحت سطح الماء معها ولا يريد عقله أن يتذكر ما حدث مع المريض ولا طاقة حتى لينخرط معها في الحديث، فأنهى فطاره بشكل سريع حتى إنه لم يشرب قهوته وقبّلها هي و«أنس» وقال في عجلة من أمره:

– حينما أعود يا حبيبتي سأحكي لك كل ما حصل.

– ستتأخر؟

– إن شاء اللّه لا، سأمر الأول على الجامعة أطمئن على الأوضاع ثم أذهب إلى المستشفى أطمئن على المريض.

استوقفتها الكلمة وتركت ما تأكل وسألت في استنكار:

– مريض! مريض من؟

– حينما أعود سنتحدث.

قالها وأغلق باب الشقة خلفه. خلفته هي إلى المستشفى وتركت «أنس» مع المربية وطلبت منها أن توصله لجدته وترحل لأنهم سيتناولن الغداء معها.



(١٠)

وصل «سليم» إلى الجامعة متجهاً إلى مكتبه، ثم طلب فنجان قهوة بُن تقيل بدون سكر، وفتح هاتفه بحثًا في جوجل على آخر الأخبار الطارئة على العالم.

بينما تقف سيارة هامر سوداء أمام بوابة الجامعة ترجلت منها سيدة تخطت السبعين من عمرها، قصيرة القامة، شاحبة اللون، ذات وجه يصعب على المرء نسيانه؛ وجهها مخدّد بالتجاعيد، عيناها ضيقتان مسحوبتان لأعلى عند النهاية يصعب إطاله النظر لهما من حدّة تقطيب جبينها. كان يلقبها جدها بعيني البئر، أي أنك ربما تعرف بدايته ولكن صعب أن تعرف نهاية مساره. لها وجهه مكفهر، تعبيرات صارمة ثابتة كأنه وجه من حجر ليس من لحم ودم، ومع ذلك تملك جسداً قوياً رغم شيخوختها.

منذ طفولتها تحب البحث وعندما تركز على شيء بعينه تمسك أول خيطه في قبضتها اليمنى ولا تتركه إلا ونهايته بين راحتيّ يديها.

رغم قتامة وجهها فإنها كانت تتميز أينما ذهبت بألوان ثيابها الحريرية الفضفاضة، إما فستان بألوان



زاهية مزركشة أو سروال مشجّر واسع وعليه كنزة حريرية. وبالرغم من تناقضها بين الملامح الحادة والألوان الزاهية فإنها حرفيًا تؤاخي الشيطان في غضبها.

يلحقها كظلها أينما ذهبت رجلا حراسة عريضا الكتفين، واحد منهما له شارب كثّ وشعر كثيف أسود، والآخر قمحي اللون أملس الوجه وأصلع الراس، يقومان بحراستها وتوفير احتياجاتها أينما كانت.

مثل أنها دخلت الجامعة بكل سهولة ثم تتجهت إلى مبنى كلية الطب ومنها إلى قسم الأمراض النفسية والعصبية، وسألت عاملًا بسيطًا في الطابق بلغتها العربية الفصحي:

– أريد مقابلة أستاذ «سليم أنس داوود» من قسم الأمراض النفسية في أمر شخصي على وجه السرعة.

– أقول له من حضرتك؟

– السيدة «ماشا هالبيرن».

ذهب الرجل إلى مكتب «سليم» وهي خلفه، ودخل وأخبره بأن هناك سيدة تريده، وقبل أن يجيبه



«سليم» بأن يسمح لها بالدخول قالت وهي تحاذي العامل:

– صباح الخير أستاذ «سليم».

قالتها وهي تقترب من الكرسي الموجود أمام مكتبه وتجلس عليه.

– صباح النور يا فندم.

قالها وهو متعجب من طريقتها في الدخول، وهنا استأذن العامل بالخروج وأغلق الباب خلفه، فبدأت السيدة بالتعريف عن نفسها:

– أنا السيدة «ماشا هالبيرن» من اليابان، أبحث عنك منذ سنوات عديدة، جئت لمصر لمقابلتك شخصياً لأعرض عليك صفقة العمر كما تطلقون عليها.

ثم نظرت بعيداً وعادت له وهي تخفض صوتها وتميل برأسها ناحيته وقالت بنبرة مبالغة في الود:

– ولكن للعلم أستاذ «سليم».. هذه الصفقة غير قابلة للرفض، وأنا أتوسم فيك الذكاء، أولًا لأنك ذو درجة علمية قيمة، ثانياً وهذا الأهم أن روح الكوكوري هي من دلّتني عليك، لذا أتمنى أن لا تكون مثل قومك؛ يكتفون باستعادة الحقائق الذي



اكتشفها أجدادك منذ زمن بعيد ويمنعهم الخوف من كشف حقائق جديدة، وحتى لو حدث فهي تذهب معهم إلى القبور.

استاء «سليم» من عجرفتها في الكلام وعدم فهمه مغزى كلامها وعلاقته به، وترك من يده الهاتف واحتسى آخر رشفة من فنجانه لعلّه يعيد الهدوء في نفسه.

وبالرغم من أن «سليم» يدرِّس ويشرف على الطلاب والمرضى ويعلمهم كيفية ضبط النفس والتحكم بالذات، فإنه أحيانًا كثيرة لا يسيطر على نفسه ويقول إن هذا مفيد لصحة وسلامة نفسية الإنسان، ولكن هذا يحدث بحساب أيضًا، فهو لا ينفلت في عصبيته وردوده مع الطلبة أو المرضى أبدًا، ولكن دون ذلك فهو يطلق العنان لما تطلبه نفسه. رمقها «سليم» متوجسًا وسألها:

– أتمنى أن تدخلي لصلب الموضوع وبسرعة، لأني مضطر أن أستأذن بعد خمس دقائق لإلقاء محاضرة.

– من الأفضل أن تبلغ اعتذارك عنها، لأن وقتك منذ دقائق أصبح ملكًا لي.

ردَّ وقد أوشك صبره على النفاد:



– أسمعك باهتمام سيدتي.. أرجو الإنجاز.

قالت في ابتسامة خبيثة:

– حسنًا.. دعنا نقول المهم ولكن بشكل مبهم لحدٍّ ما، لأن الجدران لها آذان والأبواب لها عيون. في البداية سأروي عليك قصة كان يحكيها لي جدي «يوكي يو» منذ أن كنت طفلة، اسمها «قصة شوبي»..

«يُحكى أنه في قديم الزمان كان هناك شاب اسمه «شوبي» يعيش في قرية في ريف اليابان، وفي أحد الأيام كان عائداً إلى بيته من العمل في الحقل، فتعثرت قدمه بحجر وسقط متدحرجًا على الأرض، وحين توقف عن التدحرج اكتشف أن قشة قد علقت بيده.

قال: القشة شيء لا قيمة له ولكن يبدو أنه مكتوب لي أن ألتقط هذه القشة ولذلك فلن أرميها.

وبينما كان يمضي في سبيله ماسكًا القشة بيده جاءت حشرة اليعسوب تحلّق وتئز فوق رأسه بصوت مزعج.

قال شوبي: يا لها من حشرة مزعجة! سألقِّن هذا اليعسوب درسًا لن ينساه.



فأمسك باليعسوب وربطه بالقشة ثم واصل السير ماسكًا اليعسوب حتى التقى امرأة تمشي مع طفلها الصغير، وحين رأى الطفل الصغير حشرة اليعسوب قال لأمه: أماه.. أرجوكِ أن تحصلي لي على ذلك اليعسوب، أرجوكِ، أرجوكِ!

فأعطاه شوبي اليعسوب وبدورها أعطت أم الطفل ثلاث برتقالات لشوبي تعبيرًا عن امتنانها له.

مضى في سبيله، ولم يمضِ وقت طويل حتى التقى شوبي بائعًا متجولًا يكاد يغمى عليه من شدة العطش، ولم يكن ثمّة ماء في الجوار. أشفق شوبي على البائع وأعطاه كل البرتقالات ليتمكن من شرب عصيرها.

كان البائع شديد الامتنان، وردًا للجميل أعطى شوبي ثلاث قطع من القماش. مضى شوبي حاملًا القماش والتقى أميرة تستقل عربة جميلة يحرسها عدد كبير من الخدم. نظرت الأميرة من نافذة العربة إلى شوبي وقالت:

- آه.. يا له من قماش جميل هذا الذي تحمله، أرجوك أن تعطني هذا القماش.

أعطى شوبي القماش للأميرة وهي بدورها أعطته مقابل ذلك مبلغًا كبيرًا من المال، أخذ شوبي ما



حصل عليه من مال واشترى به حقولًا عديدة ثم وزع الحقول على سكان قريته، أصبح لدى كل واحد منهم قطعة أرض خاصة به، وعمل الجميع في حقولهم بجدّ ونشاط وازدهرت القرية وشُيّد فيها الكثير من المخازن الجديدة. وكان الجميع تنتابهم الدهشة حين يتذكرون أن كل هذه الثروة جاءت من القشة الصغيرة التي كان شوبي قد التقطها.

أصبح شوبي أكبر وجهاء القرية، وكان يحظى باحترام كبير من جميع سكانها، وظل كل أهالي القرية ينادونه طيلة حياته «السيد قشة المحظوظ».

– قصة جميلة!

قالها «سليم» وقد شعر بالملل والغيظ من السيدة العجوز التي تعلو وجهها نظرات بلهاء. لم يعد يطيق النظر لها أكثر من هذا فهي فعلًا تثير غضبه.

فقال في غضب واستهزاء:

– شيء عظيم! لا وجميل، والأكثر أنها قصة جديدة! السؤال هنا سيدتي المبجّلة.. أنا كشخص يدعى «سليم» ما هي علاقتي بجدك المدعو كوكي كو



وحكايتك السخيفة وهذا الشوبي المحظوظ؟ وما علاقة كل هذا بك أنت؟ وما هو المطلوب منّي؟!

أردفت بتحفّز:

– جدي يدعى «يوكي يو»، احفظه عن ظهر قلب ولا تدع لسانك يخطئ في تهجئته مرة أخرى، كل شخص في الحياة يا عزيزي «سليم» ما هو إلا درس لشخص آخر، وجدي سيكون هو الدرس الذي سيحرك أحداث حياتك الفترة القادمة.

– كيف؟! القول سهل والفعل صعب.

– سأخبرك دكتور «سليم».. أنا معي القشة وأنت السيد قشة المحظوظ، وحتى نصل للثروة يجب أن نحصل على بعض الشارات والمعطيات مثل اليعسوب والبرتقال والقماش، ولكنك ستقوم بإحضارها من مناطق متفرقة، سأخبرك بما يلزم في الوقت المناسب.

صمت لدقيقة وضغط على كفيه وتنهد، ثم قام من جلسته وهمّ بالجلوس في الكرسي المقابل لها وقال:

– ولو أنا أخبرتك يا سيدة «ماشا» أني حتى الآن لم أستوعب ما تريدين بالتحديد!



قاطعته متمتمة هامسة:

– الحمار استطاع أن يستوعب طريق العودة إلى منزله وأنت لم تفهم بعد!

لم يسمع ما قالت، ومع ذلك لم يبالِ وأكمل وهو ينظر لها:

– أنا غير مهتم بمعرفة تفاصيل أكثر عن شبكة حياتك ومفرداتها، ولا أنا شخص طالب ثروة ولا أسعى لها؛ لديّ ما يكفي وهذا يرضيني، وبكل صدق أنا أشعر بتوتر وعدم ارتياح منذ أن رأيتك.

– لقد أخبرتك منذ قليل أنه عرض غير قابل للرفض، ومع ذلك حتى لا أكون متسلطة معك وأناصر فكرة الديمقراطية كما تفعلون في المجتمع العربي، تستعملوها كثيراً في وسط الكلام ولكن دون فعل! سأمهلك خمس دقائق فقط لإعادة التفكير.

قالتها ثم أمسكت بهاتفها ولم تتركه إلا بعد مرور الخمس دقائق، ثم قالت وهي تنظر له في مقت:

– دائمًا يا صديقي كل اتجاه معاكس في الحياة يحمل أيضًا اتجاهًا معاكسًا له، وأنا لم أتوقع أن تؤيدني في كل ما سأقول، والآن ألديك رد جديد؟



– للأسف ليس لديّ.

ثم سكت ونظر للأرض ثم قام وهو يقول:

– لديّ شيء أخير..

تابعت «ماشا» سائلة:

– ماذا؟

قال بصوت خفيض:

– أستمحيك عذرًا.. فوقت حديثنا نفذ وأريد الانصراف.

نظرت له العجوز «ماشا» في تحدٍّ وغضب وقالت بعجلة:

– العرب هم العرب؛ لا فرق بين أستاذ جامعي وبين الشحاذ! سوف أنصرف، وأجب على هاتفك.. ستتلقى اتصالًا هامًا بعد دقيقة.

لم يستنكر «سليم» ما قالته السيدة، فهو يعلم جيدًا ما هي نظرة البلاد ذات الثقافة المتطورة مثل اليابان للعِرق السامي والمصريين سواء، كما أنه لم يتوقع منها طريقة ودية في المعاملة خاصة أن أصحاب مرحلة الكهولة دائمًا ينظرون لكل الأعمار

على أنهم متسرعون في اتخاذ القرار ولا يعلمون عن الحياة إلا السطحي منها فقط –كقولهم–.

بعدها بثوانٍ اختفت «ماشا» من أمام عينيّ «سليم»، وبالفعل رنّ هاتفه وإذا بزوجته تبكي بحرقة وتصيح بأن أحداً قام بالهجوم على المربية منذ دقائق وخطف «أنس» وأنها في طريقها للبيت.

سقط الهاتف من يد «سليم» فالتقطه وهرع للحاق بالسيدة العجوز، ولكنه لم يجد لها أثرًا داخل الممرات أو خارج المبنى، فأسرع لسيارته للحاق بـ«مَرام» على المنزل.



(II)

وصلا – كلٌّ من «مَرام» و«سليم» – للمنزل بفارق دقائق بينهما، حيث وجدا المربية في حالة مزرية من بكاء وكدمة قوية في مقدمة رأسها ما زالت تدمي، ووجدا أيضًا الشرطة جاءت تلبية لنداء من مكالمة هاتفية من أحد الجيران فور إيجاد المربية ملقاة أرضًا وباب الشقة مفتوح على مصراعيه.

تجمع الجيران داخل الشقة وحينما دخل «سليم» ورأى المنظر اقترب من المربية وسألها.

– ماذا حدث؟

فسردت عليه ما حدث بصوت مضطرب متقطع:

– جرس الباب رنّ سألت من بالخارج، أجاب رجل صوته رخيم قائلًا «الغاز»، فقمت بفتح الباب توقعت أنه محصل الغاز..

هنا صمتت وتضرج وجهها واضطربت أنفاسها وأكملت وهي تبكي:

– وجدت رجلين مهيبي الطول عريضي الهيئه، واحد منهما أطاح بمسدس على رأسي فسقطت فاقدة الوعي ولم أستعيده إلا بعدها بربع ساعة



حينما أتى الأستاذ محيي جارنا بالصدفة وجدني ملقاة على الأرض وباب الشقة كان مفتوحاً، ظل يتواصل معي حتى استعدت إدراكي، بعدها هرعت لأطمئن على «أنس» ولكني وجدت كل شيء في مكانه إلا «أنس» لم أجد له أثراً، غير الورق والألوان التي كان يرسم بها ملقاة على الأرض وسماعته بجوارها مكسورة كأنها سقطت منه سهواً وقام أحد بالسير عليها بقدمه حتى تهشمت.

جُنّ جنون «سليم» وإذا برجل الشرطة يسأله:

- هل هناك أحد داخل دائرة الشك أو شخص بينه وبين أحد من أفراد العائلة خصوم فيكون مشتبهاً به؟

فسكت «سليم» لبرهة ثم تذكر العجوز الشمطاء وإذا بلسانه سينطق باسمها وفي نفس اللحظه يتلقى هاتفه رسالة من مجهول:

««أنس» بخير لا تقلق، سيعود قريبًا ولكن بعد أن تنهي مهمتك ولا تحاول إخبار الشرطة حتى لا تلفت إلينا الأنظار. وعلى كل حال الطفل خارج مصر الآن فلا فائدة ولا عائدة من إحداث ضجة، وغير ذلك فأنا أحرص من أن تصل لي قيادتكم. في انتظارك الساعة التاسعة صباحًا في المطار، أرجو أن لا تتأخر ولا تصدر منك حماقة تضر بسلامتك أنت و«أنس» أو



«مَرام». انظر جيداً يا صديقي حولك قبل أن تقفز، السيدة «ماشا» تتمنى لك رحلة موفقة».

أنهت بها العجوز رسالتها متيقنة من أنها زرعت في قلبه القلق وفي عقله الحيرة بنجاح.

زاد خوف «سليم» على ابنه وقلقه أن تُصاب زوجته هي الأخرى بأذى، وأصبح في تردد من أمره؛ هل يبلغ الشرطي ويكتب اسم «ماشا» في المحضر ويترك أمرها للشرطة التي تجني ثمارها عادة وأبداً بعد مرور عام الحصاد واستيلاء المجرم على المحصول؟ أم يستسلم للعجوز الخرفاء ويتبع حدسه وعقله الذي لم يتوقف عن التفكير في هذا الكنز والطريق الذي انفتح أمامه؟ وفي الأخير استقر على عدم إخبار الشرطي أي معلومات عما يدور في عقله ومع «ماشا»، ولكن على كل حال قد فُتح المحضر ولتذهب الشرطة في طريق وهو في طريق لربما يتلاقون في نقطه حاسمة.

ثم قام بشكر جيرانه وضابط الشرطة وانصرف الجميع وأغلق الباب عليه هو و«مَرام» الذي أمسك يدها وهدأها وقام بإخبارها بما حدث معه منذ مقابلة العجوز.

ولكن «مَرام» لم تفهم شيئًا مما قاله غير أن هذه السيدة هي السبب في خطف الصغير، وقالت له



باندفاع:

– ما دام الوضع هكذا لماذا لم تخبر الضابط بهذه التفاصيل؟!

قاطعها قائلًا:

– حاولي أن تستعيدي هدوءك ولنفكر برويّة.

– هدوء!! من أين آتي به يا «سليم»! كان يجب أن تخبر الشرطة، وكما قلت إنها ليست مصرية ما يعني أنه من السهل معرفة مكانها أو على الأقل نعرف هويتها ومتى دخلت البلد وأين ذهبت بابننا...

قاطعها «سليم» وهو يجذبها من ذراعها وينظر لها والدموع تملأ عينيه، ثم أمسك هاتفه وأطلعها على الرسالة وأنه لا يملك الخيار، ولن يقامر بسلامتها هي الأخرى وقد تأكد أنها لن تؤذي «أنس»، فهي تريد منه الحصول على أشياء فبالتالي قيمته عالية عندها، ولكنه لا يعرف سبب هذه الأهمية، وفي كل الأحوال سيذهب إليها صباحًا لينهي ما تريده منه بأي ثمن ويعيد ابنه لأحضانه. وليضمن سلامة زوجته طلب منها أن تذهب للعيش مع والديها وأن لا تبرح مكانها إلى أن يعود أو يطلب منها غير ذلك.



لم يدرِ «سليم» حينها ما تنتوي العجوز أن تفعله معه هو و«أنس» و«مَرام»، فهي رتبت كل شيء مسبقًا مع «عائنة» بأنه فور حصولهم على الشارات ستقوم «عائنة» بقتل الجميع ثم تضرم النار في شقته ليحترق الجميع، لتمحو خلفها أي أثر، ولتستكمل هي باقي الرحلة حتى لحظة الوصول للكنز. وما لم تعرفه «عائنة» أيضًا أن العجوز ستتخلص منها، فهي لن تسمح بأن تطال كنزها يد غيرها حتى آخر نفس لها.

حزم «سليم» حقيبته واتجه في الصباح الباكر إلى المطار مثلما طلبت منه السيدة الغريبة، ليجدها تجلس وعلامات البلاهة تعلو وجهها بحيث من يراها لأول وهلة يعرف أنها عجوز مسكين لا حيلة لها، ولكنه خاطئ تمامًا فهي الكيان المؤنث لإبليس، فجلس بجوارها وقال لها بتهديد:

– أحذرك يا وجه إبليس أنتِ.. إذا حدث مكروه لابني «أنس» لن أكتفي بإخراج روحك من جسدك بيدي.

– اهدأ يا صديق، فالولد بخير، أمتاكد أنك أستاذ جامعي؟!

قال وهو يتأفف غضبًا ثم أكمل:

– إلي أين سوف سنسافر؟

– هدئ من روعك يا صديقي وخذها نصيحة من عجوز.. اربح أعدائك حتى تصل لأفضل النتائج بأقل مجهود.

– لست بحاجة لنصائح، أنا أريد أن أفهم وأتاكد من موضوع الكنز ومن أين توصلتِ لخيوطه، فمن الممكن أن تكوني راكضة خلف سراب!

أخرجت من حقيبتها أربع تذاكر، أعطته واحدة واحتفظت بواحدة لها في الحقيبة، وحملت في قبضتها اثنتين لحارسيها، ثم نظرت إليه قائلة:

– أعلم أنك من العلماء الذين يؤمنون بالبارسيكولوجي، ولو أن حدسك لم يدفعك للمُضيّ قُدمًا فيما عرضته عليك أمس كنت أبلغتَ الشرطة ومكثت في بيتك بجوار زوجتك منتظراً ما ستؤول إليه الأحداث، وعلى كل حال سأخبرك بكل التفاصيل في حينها، لذا أرجو أن لا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكرا.

نظر لها سليم وقطع حواره لها صوت النداء على الطائرة:

«يتوجه الركاب لبوابة رقم ١١١ المتجهة لرحلة رقم ٣٢٣».. قالتها مضيفة الطيران في مكبر الصوت، فقامت العجوز «ماشا» فعرف «سليم» أنها تعلن عن



رحلتهما المتجهة إلى القدس، فترجّل خلفها وهو يسأل:

- ماذا سنفعل في القدس؟!

- أورشليم.

- القدس عاصمة فلسطين وستظل مأوى الحجاج من كل مكان في العالم.

وأنهى حديثه بنظرة اشمئزاز حتى لا يدخل معها في نقاش عميق سينتهي به وهو يقتلع هاتين المقلتين اللتين لم يكره شيئًا مثلهما في حياته.

هبطت الطائرة معلنة عن وصولهما بأمان.

وهنا أخذت «ماشا» نَفَسًا عميقًا وأخرجته وهي تقول:

- و أخيرًا سنبدأ أول الخطوة للوصول للنهاية المنتظرة من عقود.

وقبل أن يغادرا بوابة المطار أخرجت من حقيبتها هاتفًا وورقه بها عنوانًا، ورزمة بها آلاف الدولارات وقالت له:



– اذهب لهذا العنوان واعثر على المدعو «عطا اللّه حنا» وأحضر لي «التمثال».

فسالها بفضول:

– ما كل هذه النقود؟َ!

فنظرت له بسخرية:

– الكلمات الرقيقة لا تملأ المعدة يا صديقي، فالنقود وحدها التي تتحدث.

وأكملت بحزم:

– وسأكررها مرة أخرى.. لا داعي للحماقات فمعك من يراقب أنفاسك.

ثم قصدت وجهها لحرسيها وقالت:

– هيّا بنا للفندق فقدماي لم تعودا تحملانني.



(١٢)

حينما خرجا من المطار ووطأت الأقدام الأراضي المقدسة كان ينتظرهما صفٌّ طويل ومربك به العديد من الزوار وكثير من المسافرين الفلسطينيين المقيمين في إحدى المدن الفلسطينية، سواء منهم العائدين من أداء مناسك العمرة أو الراغبين في زيارة أهلهم وذويهم ويتمتعون برخصة استثنائية ألا وهي ورقة مرورهم حتى يجتازون مصالح الأمن الإسرائيلية. لم تنتظر «ماشا» في هذا الطابور، من الواضح أن لديها ورقة مرور ذهبية؛ حينما ذهب أحد حراسها لفرد من الجيش الإسرائيلي وأطلعه على دفتر المرور الخاص بهما وبها أفسح لهم طريقًا صغيرًا بجوار المسافرين وعبروا الحدود بكل سهولة ويُسر، بينما «سليم» دام انتظاره أكثر من ساعتين حتى سمحوا له بالعبور.

لم يجد صعوبة في العبور غير تعب الانتظار، ومن ثم وجد نفسه مع مندوب من شركة سياحية يدعى السيد «موسى» ممسك بقائمة بها أسامي ويقوم بالنداء عليها، وكان «سليم» من ضمنهم، وركب معه سيارة ومعه آخرين من الزوار الأجانب، وظل يتحدث معهم بلغات مختلفة طيلة الطريق يخبرهم عن معالم البلد التي سيقومون بزيارتها.



بينما دار بينه وبين «سليم» حوار من نوع آخر لأنه كان العربي الوحيد معه في السيارة، وطبعت على كلماته نبرات حزن دفين على واقعه وواقع أمته:

– أتشرف باسم الكريم؟

– سليم أنس داوود.

– تشرفنا بالكريم.. لهجتك مصرية؟

أومأ برأسه للأسفل للإجابة بنعم وهو يقول:

– الشرف لينا سيد «موسى».

تابع «موسى» سؤاله ل«سليم»:

– أول زيارة للأراضي الفلسطينية؟

– للأسف هي أول مرة ولكن لن تكون الأخيرة.

فقال «موسى» بتحفز:

– وحينما تعود لبلادك ستحكي عن فلسطين المغتصبة والوضع المأساوي الذي يعيشه الشعب الفلسطيني؟



اقترب «سليم» منه ووضع يده على عضد «موسى» وقال بفخر:

– سأحكي عن فلسطين أرض الأنبياء ومسرى الرسول عليه السلام، سأحكي عن الأبطال وأول الأبطال الذي رأيتهم يدعى «موسى».

ابتسم «موسى» ابتسامة بها مرارة وردد:

– اللّه أكبر على من طغى وتجبّر، اللّه أكبر على من صال وتبختر.

وهنا توقفت السيارة فقد وصلوا إلى أريحا، وقام السيد «موسى» بوصف سحر طبيعتها ثم مروا على جبل يسمى جبل التجربة الذي وقف عنده سيدنا عيسى وظل به أربعين يومًا صائمًا متعبدًا، وقد أغراه الشيطان بهذا الجبل ليأكل من ثمار أريحا، لكنه انتصر عليه وقال: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

ثم عرج الجميع على مدينة الخليل وهي الوجهة التي يقصدها «سليم»، ولكن لم يكن دخولها بالسهل؛ تطلب الانتظار للحصول على موافقة الشرطة الإسرائيلية لاجتياز الحواجز. وحينما عبروا لاحظ الجميع الفقر الذي يخيّم على البلدة والجند

اليهود في كل مكان، وما بعث في نفس «سليم» الحسرة الرايات الإسرائيلية التي تعلو البنايات.

هنا أراد أن ينفصل عن الجميع ويذهب لمقصده وهو بيت عطا اللّه حنا، ولكنه رضخ لطلب السيد «موسى» حتى يتابع معه الأول زيارة معالم البلد، ثم سيقوم بتوصيله للعنوان المراد، وأخبره أنه في كل الأحوال لن يستطيع الوصول إلى هناك دونه.

وبالفعل ما حدث قام بزيارة الحرم الإبراهيمي وقبر سيدنا إسحاق وزوجته، ثم مقام سيدنا إبراهيم وزوجته سارة، وهنا كان مفترق الطريق بينهما وانتهى بسلام صامت لا يخلو من ابتسامة أمل، ومن هنا فقد وصل «سليم» إلى قلب مدينة الخليل.

تقع مدينة الخليل حوالي ٣٥ كم جنوب القدس في الضفة الغربية، هي مدينة فلسطينية ولها أهميتها الدينية لما بها من مقامات للأنبياء، وبها العشرات من القرى والبلدات كلها عبارة عن أزقة وبيوت ودكاكين قديمة، تقوم إسرائيل بإغلاق أجزاء كبيرة منها وتنشر قوات الجيش في أغلب شوارع الخليل.

يسكن «عطا اللّه حنا» العامل في محل لصناعة الصابون في حارة من أهم مناطق الخليل، وهي

ميدان باب الزاوية التي تفوح رائحة المسك على مداخله وأزقته، جراء الدماء الطاهرة التي تدفقت فوق ترابه عبر السنوات، وحتى الآن ما زالت قوات المحتل تحيط الميدان.

* * *

شمس الهوى في النفوس لاحت

فأشرقت عندها القلوب

الحب أشهى إليَّ مِمّا

يقوله العارف اللبيب

يا حب مولاي لا تولّ

عني فالعيش لا يطيب

لا أنس يصغو للقلب إلا

إذا تجلّى له الحبيب

– أمي.. هناك رجل يقف بالخارج يسأل على أبي.

قالها «فادي» الذي كان يلعب أمام البيت في الحارة وجاءه غريب وسأله على والده «عطا اللّه». كانت



«ماجدة أندراوس» زوجة «عطا اللّه» تعجن الطحين وهي تدندن أغنية لريم البنا حينما فزعها الولد بصوته العالي فردت عليه في حنق:

– فزعتني يا كلب ليه بتعلي صوتك! ومن هذا الرجل وما الذي يريده من أبيك؟

– «عطا اللّه».. يا «عطا اللّه»، استيقظ هناك غريب يسأل عنك وينتظرك بالخارج.

قالتها «ماجدة» وهي تصيح ليسمعها زوجها المسترخي في وقت الظهيرة على السرير، فقام مفزوعًا من صياحها.

– أين هذا الغريب؟ وماذا يريد؟

– يقف بالخارج يتحدث مع «فادي».

– من يكون غراب البين هذا؟!

قالها وهو يتمتم مع نفسه، ولكن حينما رأى هيئة «سليم» الغريبة عن باب الزاوية قال له مُرحّبًا به:

– أهلًا بك.

مد يده ليبدأ بالمصافحة وهو يعرّف عن نفسه:



– أنا «عطا اللّه».. كيف لي أن أخدمك؟

تقدم «سليم» بالقرب منه وبادله السلام والمصافحة، وتحدث معه بطريقة سلسة هادئة ليكسب وده وقام بالتعريف عن نفسه وقال:

– أنا غريب عن المنطقة وهناك أحد من أصدقائي رشحك لي بأن تصبح رفيقي عند زيارة معالم مدينة الخليل، ومقابل ذلك سأهديك مبلغًا كبيرًا من المال.

وبالفعل فتح الحقيبة وأخرج منها رزمة من الدولارات وأمده بها، حينما رآها «عطا اللّه» سقط فكه ولمعت عيناه وقال له:

– ربي يسعدك.. ما كل هذه النقود!

قالها وانصرف من أمامه ذاهبًا إلى «ماجدة» زوجته، وشاورها فيما عرضه عليه الغريب، وأنه يريد أن يقطن معهما مدة الزيارة بدلًا من الذهاب والمجيء لفندق، وأظهر لها النقود الذي أغدق عليه بها، والتي لو ظل يعمل أعوامًا لن يحصل على نصفها.

وافقت «ماجدة» على الفور حينما سمعت عن رزمة الدولارات مهلّلة:



- مرحبًا بالغريب مع أنه ما أصبح الآن بغريب، فهو صاحب الدار.

قالتها لزوجها حتى يسرع بدخول «سليم»، فهذه فرصة لن تعوض، غير أنهم ليس لديهم ما يخسرونه، واعتبروه نعمه من الرب، ولن يطيلا على الزائر السؤال لماذا ولا كيف.

منزل «عطا اللّه» عبارة عن مبنى من دور واحد، به ساحة مترامية لا نهائية تقريبًا، خالية من الأثاث إلا بالقليل الذي جاد عليه ربه به من حصيرة وطبلية ومصطبتين قد بُنيتا من الطوب، وبه غرفتان، واحدة لـ«عطا اللّه» و«ماجدة» والأخرى لـ«فادي» والآن أصبحت للإقامة المؤقتة للغريب.

وها هو يجلس أمام الطبلية هو و«عطا اللّه»، و«فادي» يحضّر الأطباق مع «ماجدة» التي أسرفت اليوم في تحضير أشهى أنواع الطعام وكأنه العيد، فنوّعت من مسخن ودوالي والقدرة برائحتها الشهية، فحينما يأتي المدد تكون المعدة أول المهلّلين.

أنهت «ماجدة» رص الأطباق على الطبلية الخشبية وقالت:

– تذوق الأكل يا أستاذ «سليم» وأخبرني ما رأيك وما هو الفرق بين الأكل المصري والأكل الفلسطيني.

فرد «سليم» باسماً:

– الأطباق شكلها شهي جداً وتسرّ النِفس، تسلم يديكِ ولكني سأبدأ بتناول ورق العنب، أتطلقون عليه مُسمى آخر هنا؟

رد «عطا اللّه» وهو مليء الفم:

– دوالي، بألف هنا على صحتك.

وأكملت «ماجدة» بزهو:

– تذوق المسخن، عبارة عن شرائح من الخبز وعليها مرق الدجاج وعلى السطح قطع الدجاج، وهذه تطلقون عليها بالمصري أرز بالخلطة، ولكن هنا نضيف عليه بهاراً مخصوصاً اسمه بهار القدرة وعليه دجاج مشوي، أريدك أن تنهي كل الأطباق.

– نظر لها وهو يضحك وأكمل طعامه.

أكل الجميع حتى لمعت الصحون، حتى الصغير «فادي» ذو العينين الخضراوين والشعر البُنّي والبشرة البيضاء، فهو يشبه أبيه في كل ملامحه؛ أكل الصغير حتى أوشكت معدته على الانفجار

فقام بغسل يده وفمه وخرج ليلعلب مع أصدقائه أمام باب المنزل، ولحقه والده والضيف حتى جلسا على المصطبة بجوار المنزل في انتظار القهوة التي تعدها «ماجدة» بيدها على الموقد الكحولي، وإذا «سليم» يسرح بنظره وفكره مع «فادي» وهو يضحك ويجري مع الأطفال يمينًا ويسارًا ويتذكر «أنس» فتدمع عيناه ويلاحظه «عطا اللّه» فيربّت على كتفه مواسيًا إياه:

– ألف لا بأس عليك يا أستاذ، الأطفال هم فرحة العمر.

انتظر حتى يرى رد فعل منه يفهم ما به ولكنه لم ينطق بكلمة، فأكمل «عطا اللّه»:

– الخاتم في يدك اليسري يعني أنك متزوج؟

مسح «سليم» دموعه ورد على «عطا اللّه»:

– متزوج ولديّ ولد جميل مثل «فادي» ولكن أصغر منه عمرًا، حينما أرى ضحكته كأن الدنيا كلها تبتسم لي أنا وأمه، ربنا أراد أنه يكون طفلًا أصمًا لا يسمع ولا يتكلم ولا هو ينعم بالحياة الطبيعية مثل الولاد في مثل عمره.



تخيل «عطا اللّه» أن هذا هو السبب في حزن «سليم» الذي لم يخبره بعد عن السبب الرئيسي لوجوده هنا في الأصل هو «أنس»، وبعد ذلك يأتي حدسه الذي يقوده بشكل جنوني إلى المُضيّ في الأحداث والتفكير فيها وفي الكنز.

تنهد «عطا اللّه» ثم قال في أسى:

– أنا و«ماجدة» نصلي للرب ليرزقنا بولد يكون أخًا ل«فادي»، ولكن ربنا لم يُرِد بعد. في بداية زواجنا انتظرنا خمس سنوات دون أطفال تنقلنا خلالها للعديد من الأطباء إلى أن رزقنا اللّه ب«فادي». وبعد أن تم عامه الأول ونحن نعيد المحاولة، فالعمر ليس بمديد يا أخي، منذ شهر خاضت «ماجدة» عملية في الرحم وغدًا باكرًا ستذهب للطبيب إما يخبرها أن هناك أملًا حتى لو ضئيلًا أو يظل

«فادي» أملنا الوحيد.

بعد أن انتهيا من شرب القهوة وتبادُل الأحاديث الشخصية سأله «عطا اللّه» عن المكان الذي يريد أن يبدأ منه زيارته لمعالم الخليل صباحًا.

فرد عليه «سليم» وقد وضح الإنهاك على تقاسيم وجهه:



– دعنا نخوض هذا الحوار صباحًا، أما الآن فسأذهب للنوم.

وبالفعل اعتلى الكل أسرّتهم، وإذا ب«سليم» يحاول أن يوقف عقله عن التفكير ويغوص في النوم، وهذا حدث ظاهريًا، فالجسد هو من يستلقي على السرير، إنما العقل والروح وكل جوارحه مع «عائنة» وشهيتها المفرطة ونشوته التي لم يعرف معنى للذة الوصول إليها إلا مع «عائنة».

(١٣)

في صباح اليوم التالي استيقظ «سليم» على صوت «عطا اللّه» و«ماجدة»، وهو يودعها هي و«فادي» متمنيًا أن يُسمعها الطبيب ما يُدخل الفرحة في قلبيهما.

– صباح الخير يا «عطا اللّه»، بإذن اللّه تسمع اليوم ما يسر قلبك وتُرزق بالذرية الصالحة.

– ويبارك في عمر ولدك يا أخي، هلمّ بغسل وجهك وتعال لنذهب لتناول الإفطار ثم نشرب القهوة على قهوة الميدان اللي بباب الزاوية.

ثم اتجه «سليم» إلى الحمام ليستحم، وحينما دخل واشتم رائحة الصابون النابلسي وهو يتحمم عاد به الزمن وكأنه طفل صغير يقف بين يديّ والدته وهي تحممه وتدندن أغنية لفيروز.

بعدها ارتدى ملابسه واصطحبه «عطا اللّه» إلى ميدان باب الزاوية، وجلسا على مقهى بلاط الشهداء، وهو اسم على مُسمّى، فقد ارتوت أرضه كثيرًا من دماء الشهداء والثوار، وها هي قوات الجيش الإسرائيلي تحيط المكان استعدادًا منها لأي حركة مشبوهة.

بعد أن تناول فطوره وبعده فنجان قهوة اعتدل في جلسته ونظر ل «عطا اللّه» نظرة تحمل طلبًا مع الكثير من الاستعطاف:

– حينما وصلت لبيتك أخبرتك أني في حاجة لمساعدتك، ولكن ما أحتاج إليه ليس ما أخبرتك به وهي زيارة مدينة الخليل، أتذكر «أنس» ابني وما قلته لك عنه؟

رد «عطا اللّه» وعيناه كلهما تركيز:

– نعم متذكره.

– وأخبرتك أنه لا يوجد لديّ أنا وأمه أغلى منه.

– الحال مثل الحال.

– في سيدة لديها هوس بتجميع الآثار، وهي تقول إن لديها رغبة في امتلاك شيء لديك، هي لديها ابني كرهينة وأنت لديك أول شارة مما تريده هي حتى تعيد «أنس» إلى أحضاني مرة أخرى.

سأل «عطا اللّه» بمنتهى الفضول:

– ما هذه الشارة؟

رد «سليم» وهو ينظر ل«عطا اللّه» ويهمس:



– التمثال.

أشاح الآخر بنظره بعيداً حينما سمع الكلمة، وقد بدا على ملامحه التوتر وعرق جبينه، وردد:

– تمثال! لا أعلم عن ماذا تتحدث.

رد عليه بنبرة هادئة متفهماً موقفه:

– صدقت يا «عطا اللّه»، أنا لا أعرف شيئًا غير الذي أخبرتك به وليس لديّ فكرة عن هذا التمثال ولا ما يعنيه لك ولا لها، كل ما أعرفه جيداً هو أن قيمه هذا التمثال لديّ من قيمة حياتي، كل ما أحتاجه منك أن تمد يد المساعدة لي لأسترد ابني معافى، وأنت على دراية كاملة بما أشعر به منذ فراق ابني.

تلفت «عطا اللّه» يمينًا ويسارًا ثم اقترب من وجه «سليم» وأخبره بحماس:

– هذا التمثال نحن نتوارثه من أجداد الأجداد، أحتفظ به في مكان أمين، لا إنس ولا جان يستطيع الاقتراب منه، ولن يغادر تمثالنا أرض الخليل ما دمت أنا حيٌّ أرزق.

تحدث في الميدان حركة غير طبيعية مفاجئة، يأخذ أفراد الجيش الإسرائيلي وضع التأهب، تظهر معها



مجموعة من الثوار من مختلف الأزقة والحواري، محمّلين بالطوب والحجارة المفخخة القاتلة أمام قوات الجيش المسالمة التي تحمل أسلحة وذخيرة بيضاء، فتبدأ هذه التجمعات العشوائية المتطفلة برمي أفراد الجيش بالحجارة، فتبادلها قوات الجيش مضطرة بضرب طلقات عشوائية لفض هذا التجمع الثوري، محاولةً منهم لإعادة الطمأنينة في الميدان، ولكن هذه الطلقات لم تبث الذعر في نفوس الثوار الذين تقدموا خطوات أكثر خطورة وجرأة حتى أصابت الحجارة جبهة أحد أفراد الجيش الإسرائيلي ونتجت عنها قطرات من الدماء أشعلت روح الحماسة والثأر في نفوس أقرانه، ما دعاهم لإطلاق طلقات أكثر هذه المرة وليسه عشوائية للترهيب فقط، إنما أصبحت أكثر دقة، فكل طلقة إما تستقر في منتصف الرأس أو داخل القلب. ولأن الثوار ظلوا يتفرقون من أمام الطلقات الصهيونية فكانت تخيب الطلقات أحيانًا هدفها وتقوم بإصابة الأذرع والأقدام، ونظرًا لصعوبة نقل المصابين منهم إلى أقرب مستشفى فيخاطر بعضٌ من المواطنون بأنفسهم وسط الطلقات ويحملونهم إلى داخل البيوت حتى يأتي الدعم أو يظل المصاب ينزف حتى يلقى مصرعه.

* لا يوجد هنا غير الدم والدموع

* ليس سوى العدو المخصيّ بلا وابل



* لا توجد جدران.. كلنا في الخواء

* فقط أوغاد خاوية الوفاض إلا من الرصاص



(١٤)

يجري «فادي» مهرولًا في اتجاه مقهى بلاط الشهداء الذي سيصبح أصغر شهدائه بعد لحظات، وهو يصيح في سعادة عارمة على وجهه:

– أبي.. يااا أبي، سيصبح لديّ أخ ألعب معه، هذا ما قاله الطبيب لأمي بأنها تحمل أخي الصغير في داخلها.

يجلس «عطا اللّه» على الكرسي، يأتي «فادي» خلفه من بعيد فيلمحه «سليم» الذي يجلس مواجهًا إياه في نفس اتجاهه، فينتفض من جلسته ويهم بالجري إليه خوفًا من أن يصيبه أذى جراء الاشتاباكات وهو يلمح يد صهيونية تهمّ بالتصويب نحوه، فيقوم «عطا اللّه» من جلسته ليبحث بنظره إلى أين وعلى ماذا يجري «سليم» الذي اقترب من قلب نقطة القتال حتى تستقر عيناه على «فادي» الذي تلقى للتو رصاصة طائشة من سلاح العدو لتستقر ناحية قلبه.

* أنا الذي تركوني في لهاث العاصفة

* مضيت الليل وحدي

* سمع العالم صرختي الرعدية



* تركت لكم المستقبل المدمي

* وانطلقت حرًا عاليًا

– فاااااادي!

قالها «عطا اللّه» وهو يهرول ناحيه ابنه، وحينما وصل إليه كان قد نشع الدم على قميصه وكادت عينه أن تغلق مع آخر نفس، ولكنه ختمها بابتسامة ل«سليم» الذي وضع يده تحت رأسه ولم يفقد الأمل وظل يحدثه ودموعه تنهمر، فحينها كان يرى «أنس»، وظل يحدثه وهو يتوسل إليه:

– تحدث معي يا «أنس»، انظر لي، انطق يا قلب أبيك، أنا لا أملك أغلى منك في هذه الدنيا.

ثم حمله بين ذراعيه وخلفه «عطا اللّه» الذي انعقد لسانه عن الكلام وتحدثت دموعه بدلًا منه. وحينما وصلا البيت كانت تجلس «ماجدة» بين جيرانها الذين أتوا لتهنئتها بالخبر السعيد ولكن التهاني انقلبت لجلسة من الصراخ الجماعي، وذهبت ل«عطا اللّه» وظلت تشد في قميصه وتصرخ:

– فاااادي مات! ابني مات!



بينما «سليم» ما زال يتمسك بالأمل وقام بشق ملابس «فادي» وهو ما زال يحدثه باسم «أنس»، ثم صاح في «ماجدة»:

– توقفي عن الصياح ومُدّي يديكِ معي، أحضري قطنًا ومطهرًا.

ثم نظر لـ«عطا اللّه» الذي ارتكز على الحائط ينوح، وقال له:

– اذهب لأقرب صيدلية وهاتفني من هناك، وسوف أخبرك بالأدوية والأدوات اللازمة، واحرص على الوقت فكل لحظة ستضيع هباءً متوقف عليها عمر ابنك.

لم يجب «عطا اللّه» الذي أخذ رقم الهاتف وهرع إلى أقرب صيدلية، وبينما هو في الطرق اتصل «سليم» بـ«مَرام» طالبًا مساعدتها وشرح لها الحالة وفتح كاميرا الهاتف لترى حالة «فادي» مباشرة، وبالفعل بعد أن جعلته يقوم ببعض الفحص بيده على الجرح وهي تراه على كاميرا الهاتف التي كانت تحمله «ماجدة» وهي تنتفض من البكاء؛ طمأنته زوجته بأن الجرح سطحي ونظيف وليس به أي أثر لرصاص أو شظايا بداخله، وهو مجرد خدش خارجي ولكن خطورته في مكانه وأيضًا سيكون من السهل تطهيره وتقطيبه، وأبلغته باللازم وهو أخبر «عطا اللّه» به، وظلت معه لحظة بلحظة على



الهاتف حتى قاما باللازم للطفل، وبعد معاناة مع غياب مستلزمات ومعدات طبية ضرورية قام «سليم» بعمل اللازم إلى حد ما، فقد كانت الشظية أحنّ من يد الصهيوني ورفضت أن تذهب لقلب الطفل واكتفت بخدشه.

مرت أصعب أربع وعشرون ساعة على «ماجدة» و«عطا اللّه»، فقد ظلا يصليان لربهما وهما مترقبين كل نفس يخرج ويدخل رئة «فادي»، وكلما زادت حرارته وبدأ في الهلوسة والهذيان يظل يتمتم بنفس الجملة وهي:

– أمي تحمل لي أخًا ألعب معه.

ومعها يجنّ «عطا اللّه» وتصلي «ماجدة» داعية أن تعيش هي أنفاسها الأخيرة ولا ترى ابنها الوحيد في هذا الوضع.

يجلس «سليم» في إحدي أركان الغرفة يتأمل «فادي» الذي يراه بكل تفاصيل «أنس» والدموع تملأ عينيه وتنهمر على وجهه وملابسه، وكان كالوليد يذرف الدمع الغزير مع النحيب دون توقف أملًا في أن تأتي أمه تلقمه ثديها، فهو يرى صغيره طريح الفراش أمامه وهو يستنجد به ويطلب مساعدته ولكنها استغاثة صامتة لا يسمعها، فقط يشعر بها تؤلم قلبه وتُدمع عينيه، إلى أن كاد صوت



نحيب «سليم» يعلو على صوت نحيب الأم، بينما اكتفى «عطا اللّه» بالتصبب عرقًا من جميع مسام جسده، مترقبًا ابنه في صمت، متضرعًا مصليًا لربه حتى يمد يده ويساعده ليتجاوز المحنة.

ومع ظهور نور الصباح يتجدد دائمًا الأمل باللّه؛ مر الوقت العصيب بسلام وفتح «فادي» عينيه الخضراوين وقالها بصعوبة:

– لا تبكِ يا أمي، أنا بخير ورأيت يسوع ومسك يديّ وقال لي إنه سيصبح لي أخ وستكون ملامحه مثل وجهي وسنركض ونلعب أنا وهو أمام البيت.

خشيت «ماجدة» أن تضمه لصدرها كيلا يتألم مكان الجرح، اكتفت بأنها قبّلت جبينه ويده وكل شبر من أول رأسه حتى قدميه، ثم اقتربت من أذنه وظلت تتمتم:

– تشدد وتشجع ولا ترهب ولا ترتعد، لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب.

بينما ذهب «عطا اللّه» إلى «سليم» الذي غفا وهو يتكئ بظهره على الحائط وقام بتقبيل جبينه.

استفاق من غفوته وضم «عطا اللّه» بين ذراعيه وقال له مهنئًا:



– حمد اللّه على سلامة «فادي».

– سوف أعطيك ما تريد.

وهنا كادت الدموع تسيل ولكن قاطعها مكملًا:

– عادت لي فرحة حياتي على يدك، ليس بقليل عليك ما طلبت ولو أنت طلبت روحي الآن لهديتها لك على طبق من فضة. انهض وبدّل ثيابك لنذهب لإحضاره.

(١٥)

كنيسة المسكوبية تعتبر الكنيسة الوحيدة في مدينة الخليل؛ تقف شامخة على إحدى تلال الخليل بقبابها الذهبية وجدرانها العتيقة التي تحكي لزائريها أحداث تاريخ يمتد لأكثر من مائة وثلاثين عامًا. تعرضت المسكوبية لحادث سطو خلال الحكم العسكري الإسرائيلي، فقد سرق اليهود مجموعة من الأعمال الفنية القيمة، وبالرغم من ذلك فهي ما زالت تحتفظ بالعديد من اللوحات والصور الثمينة يقوم بحراستها حارس الكنيسة الفلسطيني الذي يخدم فيها منذ أربعين عامًا، ويحميها معه جميع أهالي الضفة الغربية.

يعيش الآن في الكنيسة ثلاثة رهبان، كبيرهم الراهب إسكندر، هو نفسه الشخص الذي قصده «عطا اللّه» ومعه «سليم». حينما وصلا لحارس المسكوبية، وبعد إلقاء التحية قال له سائلًا:

– هل تسمح لنا بالدخول وتفتح البوابة؟

– ليس هناك صلاة اليوم، ألا تعلم أن الزيارة ليست متاحة دائمًا؟

أردف «عطا اللّه»:



– الزيارة اليوم ليست للصلاة، أنا أريد مقابله الأب إسكندر.

قام الحارس من جلسته وقال:

– ماذا تريد منه؟ ومن هذا الغريب الذي معك؟ أنا لم أره هنا من قبل!

– هذا ضيفي ويدعى «سليم»، ونريد مقابلة الأب إسكندر في شيء شديد الأهمية. أرجوك اذهب وأخبره أن «عطا اللّه حنا» يريد الأمانة.

رد الحارس في جمود وهو يدير ظهره ويفتح البوابة:

– انتظرا هنا حتى أخبر الراهب وأعود.

دقائقَ وعاد الحارس ومعه الراهب إسكندر عليهم، وقام «عطا اللّه» بتقبيل الصليب الخشبي المعلق في رقبة الراهب وقبّل يده الذي قام برسم الصليب على رأس «عطا اللّه»، ثم نظر الراهب ل«سليم» وقال في حزم:

– أخبرها أن تقف خارج حدود الكنيسة ولا تحاول أن تتطفل حتى لا تكون العاقبة أذيتك أنت وهي.



حدّق به «سليم» ليتأكد أنه يتحدث إليه، وحينما استوعب أن هذا الكلام موجّه إليه قال سائلًا:

– من هي؟

لم يجبه الراهب واكتفى بنظرة صارمة، ثم نظر إلى «عطا اللّه» وقال:

– اتبعوني للداخل.

تبعه الاثنان، ولكن لم يفهم «سليم» عن ماذا تحدث الراهب ولكن في داخله كانت نفسه تحدثه عن «عائنة» أو المرأة التي يراها في أحلامه ويسمع صوت همهمتها وأنفاسها في أذنيه طيلة اليوم، فاقترب من الراهب وهو يترجل خلفه:

– حضرتك كنت تقصد من بضمير هي؟ ولماذا تنتظر بالخارج؟

– «عائنة».. هذا اسمها، نوعٌ من الجن لا يظهر إلا في المصائب والقتل والشر، أريد أن تأخذ حذرك منها، فهي لا تمتّعك إلا لإلحاق الأذى بك. ونصيحة منّي.. لا تسلم نفسك لها ليلًا ولا نهارًا، فأنت تغذي روحها ولن ترحل عنك إلا بإراقة دماء قريب لك أو مع آخر قطرة دم في جسدك.



تأكد يقين «سليم» حينها أن ما يعيشه كل ليلة ليس مجرد حلم، وأنها ليست مجرد فتاة يراها في أحلامه ومن وحي عقله الباطن، وأن حدسه على حق دائماً. وبالرغم من لذة النشوة التي تصل لحد الجنون التي يشعر بها معها فإن وجودها في تفكيره طيلة اليوم يسبب له التوتر وعدم الراحة.

وأيضاً حينها ربط بما قالته العجوز «ماشا» بأن هناك من يتبعك كظلك، ومع كل ما عرفه عنها لم ينتو ضدها فعل شيء، فكل إنسان حينما تتذوق روحه لذة اللامنطق يقوم العقل بإغلاق جميع النوافذ التي تؤدي للمنطق.

استكملا المسيرة خلف الراهب إسكندر حتى وصلا إلى سرداب ومنه إلى مغارة أسفل المسكوبية، ثم اتجه الراهب إلى أحد الصناديق وأخرج منها قطعة قماش ملفوفة وسلمها بحرص ل«عطا اللّه» وهو يقول له:

– أمانتك وأمانة عائلتك رُدّت إليك الآن، أتمنى أن تقوم بعمل الصواب يا بني.



(١٦)

فور حصوله على التمثال وجد رسالة على هاتفه من العجوز «ماشا» تخبره أنها تنتظره في المطار، وبالفعل لم تمر دقائق وحزم حقيبته وبداخلها التمثال ملفوفًا في قطعة القماش التي أخذه بها، ووضعه بين ملابسه وقام بتوديع «عطا اللّه» وشكره كثيرًا و«ماجدة» أيضًا، وقام بتقبيل «فادي» الذي لا زال طريح الفراش ولكنه بدأ في مرحلة التعافي نوعًا ما والتواصل مع من حوله.

حينما وصل المطار وجدها تجلس وتنظر له بنفس نظرتها البلهاء، فجلس بجوارها على مضض:

– أرني التمثال؟

– في البداية أريد أن أطمئن على «أنس» وأتأكد أنه بخير.

فقامت بطلب أحد ما على الهاتف وتكلمت معه باليابانية ثم ناولته الهاتف ولم تفلته إلا بعد أن قالت له محذرة:

– اطمئن على ابنك ولكن دون فعل حماقة فهو في أحسن حال، فلا تبث الذعر في نفسه حتى لا تصعّب علينا وعليه باقي الرحلة.



ثم فتحت كاميرا الهاتف ومنها استطاع أن يتحدث معه ويراه أيضًا عبر اتصالٍ مرئي.

وجد الصغير يجلس على الأرض وبجواره سيدتين، واحدة تطعمه والأخرى تجلس أمامه وتتحدث معه عن طريق الإشارة، وحينما رآه «أنس» انتصب واقفًا وظل يقفز فرحًا من رؤية أبيه، وسأله:

– متى ستعود يا أبي أنت و«مَرام» من السفر؟ فأنا أفتقدكما كثيرًا.

ثم توقف عن الإشارة وتبدلت ملامحه بحزن وأكمل:

– لماذا لم تتركني مع جدتي حتى عودتكما؟ أنا اشعر هنا بالوحدة والاشتياق لأمي.

– قريبًا يا «أنس» سنجتمع كلنا.

– قريبًا قريبًا قريبًا! كلما سألت المربية متى سأعود للبيت تجيب قريبًا!

أشار إليها واعتلت وجهه الخنقة.

رد «سليم» عليه وهو يحاول أن يخفي لمعة الدموع في عينيه:

– قريبًا جدًا يا «أنس». أريد منك أن تأكل وتنام جيدًا، وأنا سوف أهاتفك مرة أخرى للاطمئنان عليك.

أنهى المكالمة على هذا ثم انفجر باكيًا وظل يلعن «ماشا» ويسبّها في وجهها ويلعن اليوم الذي ظهرت في حياته، وبالرغم مما قاله فهي لم تلتفت له ولم تعره اهتمامًا، وقامت بإرسال المكالمة صوت وصوره إلى «مَرام» في رسالة، وطلبت منه أن يهاتفها ويأمرها بأن لا داعي للفت النظر لنا حتى ننهي ما بدأنا.

ظل الزوجان يتحدثان والبكاء ثالثهما، ولم تهدأ «مَرام» إلا حينما طمأنها أنه لم يعد أمامه الكثير وسيعود وسينهي كل هذا فور وصوله، وطلب منها أن تظل في المنزل وتأخذ حذرها على سلامتها حتى من أحلامها، وأنهى المكالمة.

وبعدها نظر للعجوز «ماشا» وسألها بفضول:

– لماذا أنا؟! كان من الممكن وبسهولة أي شخص غيري – على سبيل المثال أحد حراسك – إذا ضغط على «عطا اللّه» سيحصل على مرادك وأنت في كل الأحوال تعرفين مكانه!

ردت العجوز من بين أسنانها:



– ومن قال أني لم أحاول؟! على الأقل حتى لا أقحم عربي مثلك في طريقي وقدري؛ حاولت أكثر من مرة ولكن كل مرة كانت تقابلني عرقلة بشكل مختلف، مرة منها وقعت لي حادثة مروعة وأنا في طريقي وانقلبت السيارة دون أسباب نتجت أني طارحت الفراش أكثر من ستة أشهر، مرة أخرى ذهبت للنوم حتى أرحل صباحًا لنفس الطريق استيقظت على حُمى صعب أن تأتي دون مقدمات وتصل لهذه المرحلة المتأخرة، لازمت المستشفى عدة شهور أخرى، وهكذا كل محاولة معها تقع مصيبة لي غير مبررة، إلى آخر محاولة كادت تنتهي معها حياتي بأكملها فقد اندلع حريق هائل في غرفة نومي حتى الآن لا أعلم كيف نجوت منه، فانتهى الأمر على أن الصوت الأعلى هنا للقدر والطريق، ولست أنا هذا الحفيد المختار، ويشاء الطريق أن يكون هذا الحفيد هو أنت، لا أعلم حتى الآن لماذا ولكن على كل حال فأنا أيضًا مختارة ومن قبلك، فأنا من بيده المخطوط وسير الأمور وليس أنت.

قالتها وهي ترمقه بنظره احتقار.

اقتنع بما بررت به العجوز وعلم أنه من الآن مسيّرٌ وليس مخيّر.



ثم فتح حقيبته وأخرج لفة القماش وبداخلها التمثال فأخذتها منه «ماشا» وأزاحت القماش بحرص كأنها تحمل رضيعها، ولم تخش كون أنها في المطار وأن أحداً من أفراد الأمن ممكن أن يلتفت لها، فمن المؤكد أن «عائنة» ستكون لها اليد الأولى في نقل التمثال من مكان لآخر.

كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها «سليم» التمثال، ومن شدة انبهاره به أخذه من يدها بشكل عفوي وظل يتفحص تفاصيله ومهارة الصانع الذي لم يرَ لها مثيلًا، وشعر معها أن ضربات قلبه تتزايد وكأن هناك بالفعل علاقة ما بينه وبين صاحب التمثال أو صانعه.

(تمثال من الرخام الأملس لرجل يجلس على كرسي ويمسك بيده اليسرى كرة من البلّور، ويمسك بيده اليمنى عصا يتكئ عليها. يرتدي ثوبًا تنهدل كسراته على جسده، وأعلى رأسه تاجٌ مرصّع بالجواهر).

بعد مرور دقائق وما زال يقلب في التمثال بحرص من أمامه لخلفه أخذته منه «ماشا» وأعادته في قماشته مرة أخرى ووضعته في حقيبتها فنظر لها مستنكرًا:

– كيف ستقومين بتمريره عبر بوابة المطار؟!

– هذا ليس من شأنك أيها المتطفل.

ثم سكتت برهة وأكملت:

– ولكن أتدري، سوف أخبرك كيف.. كيفما تسافر كل ليلة لشاطئ الغرام.

قالتها وهي تنظر له بعينيها الضيقتين وتضحك.

بدأت رحلتهما الثانية التي هبطت طائرتها في مطار الحديدة الدولي باليمن، وقامت العجوز كما فعلت في القدس؛ ورقة بها اسم شخص وعنوانه ورزمة من الدولارات، فأخذها من يدها وهو يجزّ على أسنانه.

– ما هو المطلوب إحضاره هذه المرة؟!

– الخاتم السداسي، وسيكون السائق «عقيل» رفيقك من أول خروجك من المطار حتى تصل لوجهتك. وأحذرك هذه المرة وهي الأخيرة أن تنطق بحرف أو تذكر اسمي أو شيئًا عني مثلما فعلت مع «عطا اللّه»، فأنت بهذا تلحق الأذى بالآخرين، غير أني أراقبك حتى في نومك.

وأدرات ظهرها وانصرفت وخلفها حارساها ولكنها لم تغادر المطار واتجهوا إلى ساحة الانتظار



وجلست مع رجل يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة بيضاء على رأسه، حينما رآها استقبلها بابتسامة ورحب بها.

لم يفهم «سليم» هذه العبارة من أول مرة، ولكن هذه المرة فهمها ورنّ صداها في قلبه وعقله، فصوت أنفاسها لا يفارق أذنيه ولكن حينها شعر بقلق غريب على «عطا اللّه» و«ماجدة» و«فادي»، فقام بالاتصال بهم حتى يطمئن بالأخص على حالة الطفل الصحية، ولكن الهاتف أجاب عليه بصوت مسجل بأنه ربما مغلق وأن يحاول الاتصال في وقت لاحق.

فتخيل أنه ربما فعلًا مغلق ولكن ما لا يعلمه أن الجيران وجدوا جميع أهل البيت مقتولين وبطريقة غير آدمية، وقد استعان الجيران بالشرطة التي استدعت الراهب إسكندر بعد علمها أنه آخر من تحدَّث مع «عطا اللّه»، وحينما جاء ورأى شكل الجثث أخبرهم:

– هذا صعب أن يكون من فعل بشر، فهذا يسمى إعدام بطريقة النسر الدامي، وكانت تستخدم قديما جدّا ففيها يُشق ظهر الضحية وتُكسر ضلوعه وتُثنى بشكل معين ثم يتم إخراج الرئتين ليبدو منظر ظهر الضحية في النهاية على شكل طائر النسر ملطخ بالدماء، ومن قام بفعل هذا من



إنسٍ كان أو جنّ ليس له دين وهو ملعون لنهاية الأيام.

وأكمل الراهب حديثه ناصحًا:

– يجب أن تتم مراسم الدفن في أقرب وقت دون الدخول في تفاصيل لن تأتي علينا إلا بالبلاء ونحن لا طاقة لنا به، وعلى كل حال من يموت في هذا الوقت على هذه البقعة من العالم لا دية له.

لم يدرِ أنه قريبًا بعد أن تأخذ العجوز «ماشا» ما تريد من «سليم» سيتكرر هذا المشهد في بيت «سليم» معه ومع ابنه وزوجته.



(١٧)

اليوم الخميس، قصفت جماعة الحوثي الأحياء السكنية في مدينة حيس بمحافظة الحديدة. وأفادت مصادر محلية أن عدة قذائف سقطت على الجامع الكبير في المدينة وتعرض لأضرار كبيرة حيث تهدم جزء من بنائه الخارجي، وتواصل جماعة الحوثيين قصف منازل المدنيين والأحياء السكنية بصواريخ الهاون وصواريخ الكاتيوشا منذ سيطرة الجيش على المدينة.

بمجرد أن حاول «سليم» وبعض زوار المطار أن يخرجوا من باب مطار الحديدة وجدوا فوقهم ضربات جوية وأمامهم اشتباكات حية بين الجيش الوطني المدعوم من السعودية والإمارات وبين المتمردين الحوثيين ومحاولة منهم السيطرة على المطار. عاد «سليم» أدراجه سريعًا وبلا إرادة منه ووقف خلف زجاج الباب تتصارع أنفاسه صعوداً ونزولًا مع ما يحدث أمامه، وإذا برجل يظهر أمامه خارج الباب له يرتدي هو الآخر جلبابًا وعليه سترة وفوق رأسه شال به عدة طيّات، لوح لهم بيده طالبًا منهم الخروج وإذا به يسلك بهم رواقًا خلفيًا ليس آمنًا من الخطر إلى حدّ مُرضٍ ولكن على الأقل فوقهم غطاء من المعدن يحميهم، وحينما وصلوا لآخره سألهم الرجل في عجلة:



– من منكم يدعى السيد «سليم أنس داوود»؟

رد وقد بدا الذعر على وجهه من صوت الضربات التي فوقه وهو لا يراها:

– أنا «سليم»، أنت «عقيل»؟

– نعم أستاذ.

ثم أحاطه عقيل بذراعه حول عنقه وعلى كتفيه ومر به من ممر ضيق أفضى بهما إلى سيارة نص نقل ركباها وغادرا المكان.

ظل «سليم» ينظر خلفه متابعًا ما يحدث في منطقة المطار وسأل عقيل بفضول:

– هل كل الطرق بها قصف واشتباكات؟

رد عقيل بصوت رفيع وحاد:

– لا تقلق يا سيد «سليم»، المتمردون مسيطرون على الطريق الساحلي، لذا سوف نبتعد عنه قدر المستطاع ونسلك طرقًا أكثر أمانًا داخل البلد وسط الجموع، أنت طرد هام ودررت عليَّ مبلغًا كبيرًا فسأحرص على توصيلك بالسلامة، لا داعي للخوف.



لم يقتنع عقل «سليم» بما قاله عقيل وهو يرى القناصة على طول الطريق، حتى وصلا إلى قلب مدينة الحديدة، وهنا ركن عقيل السيارة وترجل منها وطلب منه النزول معه، سيواصلان سيرًا على الأقدام حتى الوصول للعنوان المراد.

لم يتمالك «سليم» نفسه وبدأت أوصاله بالارتعاد وقلبه بالارتجاف كلما وقعت عيناه على هذه البيوت الخاوية على عروشها؛ مجرد أكواخ وأناس يحتمون تحت أغصان شجر ليصبح المأوى لهم ولأبنائهم. يرى الفقر والجوع، يرى أمامه مثالًا من أسوأ الأزمات الإنسانية التي شهدها العالم على مر الزمن.

وظهر أمامه على طول الطريق مجموعة من العائلات منهم الشيخ والرضيع والنساء، وكلهم نفس الوجه الذي خطّ الوجع علامات على قسماته، يسيرون على الأقدام، ومعها أخذ قناصة الميليشيات الحوثية وضع استعداد لإطلاق النار، وهنا تشبث «سليم» بذراع عقيل فطمأنه وهو يضغط على يده بقوة:

– لا تخف، لن يبدأوا في الضرب الآن إلى أن ترحل كل العائلات بعيداً، ونحن مع أول منعطف يميناً ستكون وجهتنا الأخيرة.

فسأله «سليم» في حزن:



– إلي أين يذهبون؟

– تركوا منازلهم وأرضهم هاربين بحثًا عن ملجأ آمن ورغيف خبز مغمّس بعَرَق النزوح.

فتمتم «سليم» هامسًا:

– فعلًا.. لن تعرف أبدًا حرقة النار إذا لم تجربها.

وصل «سليم» أخيرًا إلى مدينة حيس الحديدة قاصدًا فيها «صابر أبو بكر»، يقطن في المنزل المقابل للجامع الكبير، هو أحد المباني الأثرية القديمة. يكسب صابر قوته من صناعة الخزف من فناجين وأكواز ولكن هذا كان قبل مقتل زوجته «حليمة» وطفلته الرضيعة ذات الأربعة أشهر، حينما كانت تصلي صلاة العيد وبين يديها الرضيعة وتلقت المنطقة ضربة قوية من الحوثيين، زُهقت أرواح العديد من المدنيين العزّل وكانت زوجته وابنته من بينهم، وتحولت فرحة العيد إلى لمّ أشلاء الشهداء وتوديع أرواحهم إلى السماء للاحتفال بالعيد مع الملائكة والصدّيقين.

ومن حينها وهو شبه ذاهب العقل لا يعمل، لا يكلم أحدًا ولا حتى يخرج من بيته، فقط يجلس في البيت في انتظار زوجته ومعها الملاك الرضيع وهي

تبتسم له. يمر عليه جيرانه وأقاربه لإطعامه ورعايته وبالرغم من ذلك فحالته تزداد سوءاً كل يوم.

سأل «عقيل» أهل الحي عن «صابر أبو بكر» إلى أن قابل أحد أهالي الحي وقام بتوصيله هو و«سليم» لباب شقته. وهما في طريقهما قصّ عليهما حكاية صابر وفقدانه أهل بيته. هو كان يحكي حكاية صابر ولكنها حكاية كل شقيق في اليمن يتعرض لرصاص الحوثيين الغادر وهو ينتهك العرض والأهل والمال.

ترك عقيل «سليم» على باب المنزل وأخبره أنه سينتظر منه مكالمة هاتفية حتى يأتي ليعود به إلى المطار، وأعطاه رقم هاتفه ثم رحل. دخل «سليم» حيث وجد صابر يجلس على الأريكة شارداً بنظرِه مع النافذة والضوء الذي يأتي منها. جلس بجواره محاولًا أن يفتح معه حديثًا ولكن دون جدوى، فلم يجد منه رد فعل، فقط ينظر له ثم يعاود إلى قبلته للنافذة.

ظل هكذا قرابة الثلاث ساعات، حتى أن «سليم» بدأ يتحرك في أركان البيت وقام بعمل كوبين شاي له ولصابر، محاولًا استرضاءه حتى يتحدث معه ولكن أيضًا بلا فائدة، إلا أن شعر بالنعاس من شدة الهدوء والراحة التي كان يشعر بها في بيت صابر، فاتكأ بكتفه على الكرسي وغفا قرابة النصف



ساعة، ولكنه استيقظ مذعوراً وهو يحلم ب«فادي» هو و«أنس» وهما يلعبان بالكرة ثم تأتي كرةٌ من نار من بعيد لتقضي عليهما، ومعها انتفض من نومه وجد صابر كما هو لم يغير ساكنة.

فاقترب منه وجلس على نفس الأريكة وقرر أن يسأله مباشرة عن الخاتم:

– صابر.. أنا متيقن أنك تسمعني جيداً، ما مرّ بك وبأهلك ليس بهين، أريد أن أنال عطفك لتساعدني، ولكن يأبى لساني أن أقارن ما أنا أمُرّ به وبين ما حدث معك، ولكننا نشترك في شيء واحد هو حرقة قلب أب على وليده.

ساد الصمت على كليهما ثم عاد «سليم» محاولًا:

– ما حدث معك قد حدث والآن بإمكانك أن تعيد طفلًا إلى قلب أبيه الذي سيتمزق إربًا إذا مسّ ابنه أذى، ربما لا تفهم ما أعنيه ولكن أنا واثق أنك تشعر به.

أنا أريد الخاتم السداسي يا صابر.

وبالفعل نجحت المحاولة، حينما سمع صابر لفظ الخاتم السداسي نظر إلى «سليم» وكأنه يريد أن



يقول شيئًا، فأومأ له «سليم» برأسه بأن يحاول أن يتحدث فهو منصت له.

فأخبره أن الخاتم مع حليمة، وهي ورثته من جدّته وجدّته ورثته من جدّتها وهو الآن في يد حليمة من يوم زفافها، وقام بالإشارة والنظر إلى الغرفة الموجودة أمامه وأكمل كلامه: وحليمة ستهديه لبنتها حينما تكبر وتصبح عروسًا وحينما تلد ستهبه لابنتها...

حاول «سليم» أن يقاطعه سائلًا:

– نعم هو هذا الخاتم.. أين أجده؟ أنا في أمس الحاجة لمساعدتك حتى لو بإشارة وأنا سافهم، أنا عانيت حتى أصل إلى هنا، أرجوك لا تدعني أرحل خاوي الوفاض.

لم يتوقف صابر من حينها عن الكلام وظل يحكي عن حليمة وابنته وقصة الحب التي تجمعهما ويوم ولادة ابنته، ومنها إلى كل ما يعاني منه الشعب اليمني.

إلى أن فقد «سليم» الأمل في أن يصل منه لمعلومة مفيدة وكان الوقت ليس حليفًا له، وكان كلما تذكر «فادي» أو سمع صابر وهو يتحدث عن زوجته وابنته الشهيدتين يكاد قلبه يُقتلع من بين



ضلوعه من الخوف على «أنس» و«مَرام»، ويشعر أنه في وسط دائرة شائكة والعدو متربص له، لا هو قادر على الوقوف في منتصفها بعيداً عن أهله ولا هو قادر على المواجهة والخروج لأن ذلك ليس بإرادته، بالإضافة إلى أنه متيقن أن ما يحدث وما سيحدث له ليس عن طريق الصدفة، وأن هناك شيئًا أكبر منه ومن «ماشا» قرُبا على الاقتراب منه.

قرر «سليم» أن يجد حلًا لهذا الوضع، فالمجادلة أكثر من هذا مع صابر لن تأتي بالنفع بل بالعكس على نفسه، كما أنه لن يجد له مدخلًا لعرض مال عليه فحالته لن يجدي معها مال ولا سلطة، فقام متجهًا إلى الغرفة التي أشار عليها صابر بحركة لا إرادية وهو يتحدث عن الخاتم وزوجته، وبدأ في البحث بين مقتنياتها وهو يقلب بين طيات الملابس في الخزانة، وجد لفة معقودة عبارة عن فستان ملطخ بالدماء وبداخله ملابس لطفلة صغيرة ممزقة وعليها دماء، ووجد معها الخاتم ومقتنيات أخرى من المرجح أنها لحليمة والطفلة كانتا ترتديانها حينما تعرضتا للهجوم الغادر.

أخذ «سليم» الخاتم وأعاد باقي المحتويات كما كانت وعقده كما كان وترك معه دموعه التي انهمرت حينما رأى الدماء وتخيل كم الغدر التي تعرضت له هذه الأرواح البريئة على يد متمردين لا يعرفون معنى الرحمة ولا الإنسانية، لا يسعون إلا



لمصالح شخصية ويصطفون تحت راية الدين والشريعة وهم لا يمتون لها بصلة غير أنهم يزهقون أرواحًا بريئة مسالمة واستنفاد اقتصاد وثروات بلدهم، فما أقساه المشهد حينما تأتي بمراهق يحمل سلاحًا ليقتل أخيه الرضيع ويمزق جسد أم! ما أجنّ هذه العقول بأن تُغذّى أفكارهم على أن بلوغك الرشد والرجولة معناه أن تحمل السلاح وتذهب لقتال أخيك! ألا يميز عقلك بين طرد العدو من أرض بلدك وبين إراقة دماء أبناء وطنك؟! أم أنك تعاني من قصر النظر حتى ترى أن عدوك هو ابن وطنك؟!

بعد أن حصل على الخاتم واتجه بعدها إلى باب الشقة، ولكن قبل أن يغادر نظر لصابر نظرة رثاء لحاله، ولكن ما باليد حيلة ولا التأخير في صالحه، وتركه وهو يدعو له بصلاح حاله ورجوعه لصوابه وتقبّله أن ابنته وزوجته الآن تنعمان بالخير والسلام في الجنة. ثم خرج وترجل حتى وصل لبداية الشارع وإذا به يهاتف العجوز «ماشا» ليتفاجأ بوجودها تجلس في السيارة أمامه وتنظر له ملوّحة بيدها بأن يسرع خطاه، وحينما ركب بجوارها طلبت من السائق أن تكون وجهتهم للمطار ما دفع «سليم» للصراخ في وجهها وهو ما زال تحت آثار البكاء وهو مكفهر الوجه ومتهدج النبرة:



– أريد أن أعود إلى مصر وأطمئن على «أنس» وأضمه إلى حضني.

لم تبالِ بما تفوه به «سليم» وردت في هدوء مطلق:

– ألم تسمع المثل الذي يقول إذا أكلت السم أنه الصحن كاملًا! على كل حال الخطوة القادمة هي محطتنا الأخيرة في الرحلة وبعدها العودة إلى الأهل والديار، والآن ناولني الخاتم لأراه.

قام بفتح حقيبته وهو يسبّها بأقذر الألفاظ بينما هي تتبع حركة يده بشغف توقًا لرؤية الخاتم.

ثم أخذت من يده الخاتم وأخرجت نظارتها وظلت تتفحص الخاتم من كل الاتجاهات ثم استقرت بنظرها على رأس الخاتم وتفحصت حروفه، ثم وضعت الخاتم في قطعة قماش صغيرة ومنها إلى حقيبتها.



(١٨)

وصلت العجوز «ماشا» و«سليم» إلى المحطة الأخيرة من الرحلة وهي مطار جزر سليمان، هو مكان أقرب ما يكون لقطعة من الجنة، دولة تقع في جنوب المحيط الهادي، بها مجموعة من الجزر عاصمتها هوينارا، يتحدث سكانها الإنجليزية ما سهل على «سليم» الأمر أكثر من فهمه اللهجة اليمنية. هذه المرة لم تعط له العجوز ورقة بها الاسم ولا نقود واكتفت بقول:

– اذهب إلى الشاطئ واسأل من أول المنطقة الساحلية على» آدم».

– آدم؟

– نعم، رجل يدعى آدم جميع السكان يعرفونه، واسأله عن طائر الهدهد.

غادر من أمامها وقد اعتلاه شعور خوف ممزوج بيأس مع حنين، فالطريق أمامه لا يجد فيه ما يسر ولا خطوة واحدة فيه تبشر بالضياء. وترجل وهو يناجي ربه:

– اللهم اهدني سواء السبيل فكل ما أفعل من وحيك.



بينما اتجهت «ماشا» لتسجل وصول في فندق الملك سليمان، ومنها إلى المعبد أو الهيكل الذهبي الموجود على الجزيرة الذي يقال إن سيدنا سليمان هو من قام ببنائه وأول من اكتشف الجزيرة، لذا سُميت على اسمه، فذهبت العجوز لهناك لتزوره لأنه من أجمل المعالم التي سمعت عنها على الجزيرة منذ وصولها لباب المطار.

حينما وصل للشاطئ فك رباط حذائه ونزعه ثم وضعه في حقيبته، فقد وجد صعوبة في المشي على الرمال البيضاء بحذائه.

شاطئ خلاب له منظر ساحر؛ رمال بيضاء مليئة بالشعب المرجانية تطل عليها منازل بسيطة مغطاة بأوراق الشجر وقليل من الأعمدة الخشبية، كلما صادف شخصاً أمامه سأله عن شخص يدعى «آدم» تكون نفس الإجابة:

– «هناك».. مع إشارة بالترجل أماماً.

والجميع لهم نفس البشرة السمراء والأعين الملونة سواء خضراء أم زرقاء كلون السماء، والشعر المجعد مختلط اللونين الأشقر والبُنّي.

ظل يمشي قرابة الساعة وهو يتحدث مع «مَرام» على الهاتف ويحكي لها كل ما حدث معه في



اليمن وما رآه من معاناة تفطر القلب وتوجع الروح، إلى أن وجد رجلًا نحيل الجسد بشرته سمراء، يتمتع بشعر رمادي مجعد كثيف ولحية بيضاء وعينين خضراوين، لا يرتدي شيئًا غير بنطال أبيض من القماش الشفاف ودلاية في رقبته وفردة حلق فص أسود يزين أذنه اليسرى. حينما ترى تقاسيم وجهه ويده تعلم أن عمره فاق المائة عام بكثير ولكن عافية جسده تتحدث بغير ذلك، بأنه أصبى من «سليم» الذي تورمت قدماه من المشي على الرمال، فأنهى المحادثة مع زوجته حتى يسأله عن آدم.

كان الرجل يمسك بلطةً بيده ويقطع ثمار الموز من على الشجر ثم يضعها في طبق من خوص، وحينما انتهى وكان «سليم» حينها يترقبه في صمت تجمع الأطفال حوله من كل مكان واقتسموا الموز فيما بينهم، ثم تركهم الرجل واتجه إلى البحر وجلس، فذهب «سليم» وجلس بجواره ليريح قدميه وحينما اقترب منه وقعت عيناه على الدلاية التي في رقبته، فهي تضيء كضوء الشمس، فسأله الرجل وهو يبتسم كاشفًا عن أقبح ما فيه، أسنان سود مثرمة.

– أتريد شيئًا؟



حينما اقترب الرجل منه شعر بألفة، وأحب عظام وجهه البارزة وجلده الغامق المتراخي وشعر رأسه الأشعث، وأحب أكثر نظرة عينيه الأليفة.

فأجابه بنعم وأنه يبحث عن رجل يدعى آدم.

– أنا آدم.

تردد «سليم» في البداية ولكن لا سبيل أمامه غير السؤال مباشرة، ولكن في البداية قام بتعريفه على نفسه وبعد ذلك أخبره أنه يريد أن يسأله عن شيء.

– «سليم أنس داوود».

– عيناك بهما طلب.

فنظر له بابتسامة ارتباك، فأردف العجوز آدم:

– لا يأتي أحد إلى كوخ أدم إلا وله طلب، صغير أو كبير.

ما زال «سليم» في دائرة ارتباك وصمت، فحاول العجوز مرة أخرى أن يخرجه منها فقال ضاحكًا:

– العجوز لا يملك المال إنما لديه الكثير من الموز والحكمة.. أيهما تريد؟

فابتسم «سليم» ابتسامة كشفت عن أسنانه وهنا تحدث:

– أنا فعلًا صاحب حاجة وأتمنى أن أجدها عندك أيها الطيب، فقد بلغت من الحيرة أشدّها.

تابع العجوز سائلًا:

– من أين أتيت يا «سليم»؟

– أنا من مصر، ولكن قبل الجزيرة مباشرة كنت في بلد المجاعة.. اليمن.

– مرحبًا بك يا ابن الأهرامات والنيل، انطق بما تريد فيكفي ما تحمله داخلك من المكان الذي أتيت منه.

– أريد شيئًا أظن أنه معك وهو شديد الأهميه بالنسبة لي يترتب عليه حياة أو موت.

رفع العجوز حاجبًا وقال باستنكار:

– أنا قلت لك لا أملك غير الموز والحكمة، أنا أعلم أن الحكمة تشيّد قلاعًا وتهدم مدنًا ولكن لا أظن أنك أتيت لها.

ظل «سليم» متخوفًا من رد فعل الرجل أكثر من السؤال نفسه، حتى تركز نظره على الدلاية في



رقبة العجوز آدم.

– أنا أسمعك يا رجل..

فرد «سليم» سريعًا:

– أنا أبحث عن طائر الهدهد.

رفع الرجل حاجبيه في اندهاش ونظر له وابتسم ابتسامة عريضة، ثم وضع يده على الدلاية التي يحملها خيط عريض ملفوفة حول رقبته، مصنوعة من المعدن، في الأغلب من النحاس أو الذهب الأصفر الخالص، عبارة عن مفتاح رأسه تتشكل على هيئة طائر واضح الملامح يقف شامخًا داخل دائرة، والنصف السفلي من المفتاح من نفس المعدن يأخذ شكل نصف دائرة طولها لا يتعدى السنتيمترين.

حينما نظر له «سليم» فهم أن المقصود بطائر الهدهد هو المفتاح، فقام الرجل بفك عقدة الخيط من رقبته ثم وضعها في يده وهو يقول:

– نحن ننتظرك منذ عقود يا «سليم».

– نحن؟!

قالها «سليم» سائلًا:



– نعم، من قديم السلف، من عقود ونحن نحملها من الجد الأكبر إلى من يليه، ويُسمى الذي يرتديها حامل الأمانة حتى لا ينسى رسالته، وكل رجل حملها كان يتنمى أن يكون هو من سيرد لك الأمانة حتى تتخلد سيرتها عند الأجيال القادمة بأنه تحدث مع المختار.

قاطعه «سليم» بنبرة فضول:

– مختار!

لم يجبه العجوز، لم يدرك عقله أن «سليم» لا يعرف أنه هو المختار، فلقب طائر الهدهد الذي أُطلق قديمًا على الدلاية لا يعلمه غير المختار، ثم أكمل:

– هذا الطائر هو طائر الهدهد، يقف منذ عقود ينتظر المختار حتى يضعه في نصابه المقدّر له.

أعاد «سليم» السؤال بنبرة فضول لا تحتمل التجاهل:

– ما تعني بكلمة المختار؟!

– أنا لا أعني شيئًا، أنت هو المختار الذي سيأتي ويطلب الطائر وها هو معك.

– إذن أنا مرسال وليس بمختار في شيء.

– لم تقل الأسطورة هكذا.

– ماذا قالت إذن أسطورتك أيها الحكيم؟!

قالها في تهكم وأكمل ساخراً:

– أن «سليم أنس داوود» سيأتي وأنني هو هذا المختار الذي لا أعرف عنه شيئًا وأنا في عمري هذا ومنذ أيام كنت أعيش حياة عادية وهانئة والآن أصبحت المختار ولم أعد أتذوق غير المرارة!

صمت العجوز ثم وضع يده على كتف «سليم» وقال:

– اهدأ، ونعم.. أنت الحفيد المختار. دعني أسألك شيئا.. هل رأيت يومًا الحياة تستأذن البشر في شيء! حينما تأتي رياحها محملة بالخير تصبّه عليك دفعة واحدة وكذلك الشقاء ومثله الموت، في أقل من طرفة عين، هذه هي الحياة.. أحداثها تساوي طرفة عين. أنت أخذت منّي المفتاح، الآن أتعرف ماذا ستفعل به؟

– لا.

قال العجوز مازحًا:

– إذن ستعرف في طرفة عين.



ابتسم «سليم» هنا وقد بدأت انفاسه بالانتظام وسأله:

– ما هي الأسطوره التي تداولها أجدادك؟

أمسك العجوز حفنة من الرمل بيده ووضعها في يد «سليم» ونظر للبحر قائلًا:

– كان هناك سلطان حكيم مر على هنا منذ عقود وترك هذا المفتاح وقال إن الأقدار ستقود الحفيد ليسترده، إذا فأنت هذا الحفيد ويجب أن تعرف هذا وتعرف علاقتك بالمفتاح وأن لا تفرط في كنزك، فكل واحد منا لم يُخلق عبثًا، وأنت من بين كل الأجيال الحفيد المختار. وإن هذه المقابلة ستكون النهاية للأسطورة التي طالما تداولوها بينهم حتى يتم اللقاء، ولكنها أيضًا بداية لعالم جديد لا يعلم أحد عنه شيء غير.

أراد «سليم» أن يخبره ب«ماشا» ربما يجد عنده تفسيرًا لما يحدث معه ولكنه سكت خشية أن يمسه أذى، فهو حتى الآن لم يسمع خبرًا من «عطا اللّه» وزوجته الذي أكد عليه أنه سيتصل به ليطمئنه على حال «فادي».

لم يتخيل «سليم» أن مهمته هذه المرة ستنتهي بهذه السلاسة والسرعة؛ لا حروب لا جرحى، لا دموع.



شكر «سليم» الرجل كثيراً الذي أهداه بعضاً من الموز ظل يأكل فيه حتى وصل للمطار. حتى الآن لم يلمح العجوز الشمطاء تنظر له بنظرتها البلهاء من أحد الجوانب، فاتجه إلى حمام المطار وقام بالاغتسال قدر المستطاع أمام الحوض وبدّل ملابسه من أثر رمل البحر وجهز نفسه استعداداً للعودة للوطن والبيت والأهل، والأهم من هذا وذاك إلى الصغير الذي لا يفارقه، واتصل ب«مَرام» وطمأنها عليه وأن تستعد بعد ساعات من الآن لاستقبال ابنها.

ثم اتجه لأحد كراسي الانتظار وجلس عليه، ثم هاتف «ماشا» ولكن هاتفها كان مغلقاً فلم يعاود الاتصال، وظل يفكر فيما قاله آدم له، ومعنى كلمة الحفيد المختار، وأن عليه ألا يتخلى عن كنزه. هو متأكد مليون المائة أن له صلة مباشرة بما يحدث وبالكنز وبالشارات، ولكن حتى الآن لم تفصح العجوز بكل ما في جعبتها. هل يسكت ويسلمها المفتاح ويسترد ابنه وحياته ويتخلص منها؟ أم يفعل بنصيحة أدم؟ ولكن في هذه الحالة ربما يفقد أعز ما لديه.. «أنس».

ظل في حيرة إلى أن غاص في نوم عميق وحقيبته بين أحضانه حتى وصل إليها، تجلس بين قدميه في المطار والساحة فارغة، هي وهو فقط، تمسك بيده وتخبره بأنها تشتاق له وتترجاه أن يتوقف عن

الابتعاد عنها، وأنها لن تسمح لأحد أن يشاركها فيه، فاقترب منها ولثّم شعرها وأحاطها بذراعه ولثّم خدها وعنقها، ثم التقت شفتاهما فلثّم خدها من جديد وهو يضغط على راحة يدها، وهنا ضمته لحضنها المشتعل وما زال فاه يندى بقبلتها. لامس كوعه فتنتها الطرية فسرعان ما غنّت مفاتن جسدها لحنًا على أوتار قلبه فهزته النشوة حتى سَكَر. بالرغم من أن «عائنة» ليست من الجنس البشري فإن «سليم» كان يشعر معها بتلقائية كفيلة بإسعاده...

«سليم».. «سليم».. سلييييييييم؟

- أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم!

قالها «سليم» وهو ينتفض من نومه ليجد «ماشا» وجهها ملاصق لوجهه وتبتسم وتناديه باسمه لتوقظه، ثم جلست بجواره وقالت:

- استفق يا صديقي.. فمن يلحق بدجاجتين لن يمسك إحداهما. هناك من ينتظرك، صباحًا ستكون في بيتك ومع «أنس» و«مَرام»، وبما أننا أصبحنا صديقين مقرّبين...

هنا نظر لها «سليم» باستنكار فلم تبالِ كعادتها وأكملت:



– سوف أسعد باستضافتك لي يومين على الأكثر إلى أن أحدد الوجهة التالية المقصودة.

هنا فهم أن حاجتها له لم تنتهِ وأنه سيبتعد عن الاصطدام معها إلى أن يصل لابنه وبعدها يفكر فيما ينتوي فعله، فأخرج لها المفتاح وسلمه لها، التقطته في فرح وتفحصته جيداً كعادتها ثم وضعته داخل علبة مبطنة من الداخل ومنها إلى حقيبتها.



(١٩)

صعد الاثنان على متن الطائرة وجلسا متجاورين. نظر «سليم» من خلف زجاج النافذة وحلّق بعقله بجوار السحاب، ليرى «أنس» يركض كالممسوس في فضاء واسع تغلبه الظلمة، وظهر أمامه رجل مديد الطول مهيب الهيئة وأعطاه عصا في أولها شعلة نار أضاءت المكان وزاد لهيبها حينما لامست العصا يده، سمع بعدها أصوات متتابعة في حدّة أقرب إلى الصراخ، ظل يتنقل بين الطرقات بحثًا عن صغيره الذي توارى في الظلام ولم يعد يسمع خطى ركضه. أرسلت الشعلة خيوطًا صفراء على أركان المكان فوجد «مَرام» تنتحي ركنًا وتجلس صامتة، بينما عيناها يزيدهما الحزن اتساعًا في وجه شديد الشحوب. حدّق بها وتحقق ثم غالب دهشته وسألها مضطربًا:

– ما بكِ يا «مَرام».. لماذا تجلسين هكذا؟ وما الذي أتي بك إلى هذا المكان المظلم؟!

– سمعت صوتك وأنت تنادي باسمي مستغيثًا من شيءٍ ما فهرعت إليك ولم أجدك، وبعدها سمعت صوت صغيري وهو يصرخ باكيًا «أمي.. أمي» ولم أجده أيضًا، فلم أجد غير هذا الركن ألجأ إليه في انتظاركما.



انخفض إليها وقامت بالارتكاز على يده ووقفت فضمها إلى صدره وأردف:

– أنا بجوارِك لا تخافي وسنجد «أنس»؛ أنا لمحته منذ قليل وهو يركض ولم يكن به مكروه.

أحاطت خصره بيدها متكئةً بجسدها عليه، ولف هو ذراعه على كتفها، وتابعا مشيتهما الوئيدة حتى وصلا إلى ممر ضيق حينما دخلا فيه تعالت نيران الشعلة من تلقاء نفسها وأصبح المكان أكثر وضوحًا، وظهرت على جانبي الممر رسومٌ لأشخاص وحيوانات تعود للعصر الفرعوني، وتهيأ لهما مع لهيب النيران ومتوالية الأشخاص أنها تتحرك على الحائط في حركة منتظمة بجوارهما. بينما انشغل الاثنان تخوفًا مع الرسوم على الجدران جاء «أنس» منحدرًا في اتجاههما من آخر الممر وهو يردد بصوتٍ عالٍ:

– الظلام موجود تحت الشعلة.

وإذا به يسقط في حفرة كانت تفصلهما عنه بالقليل من السنتيمترات، فصرخت «مَرام» مع اختفائه وسقط «سليم» بجوارها مغشيًا عليه.

وهنا عاد إلى جلسته في كرسي الطائرة بجوار «ماشا» التي سألته:



– ما سبب انتفاضة جسدك؟

– لا شيء، ربما كنت أحلم.

– وأنت مستيقظ وزائغ العينين!

لم يجبها ونظر للنافذة في صمت وشرود.

وأخيرًا وصل إلى مطار القاهرة، وهو في طريقه إلى المنزل ومعه العجوز ظل يهاتف «مَرام» ولكن دون إجابة منها، حتى إنه بدأ يتملكه القلق عليها ومن «ماشا»، إلى أن وصلا أمام الباب وفتحت له «مَرام» وبجوارها «أنس»، وحينها وجَّه نظرة شكر إلى «ماشا» لأنها أعادتهما له بالرغم من أن هي في الأصل من وضعته في هذا المأزق، ولكن في النهاية وفّت بما وعدت، وأيضًا رؤيته «أنس» أنسته مشقة ما رآه، وأخذه بين ذراعيه وظل يقبّله من أول جبينه حتى قدميه، ومعها كانت تبللهما دموعه التي انهمرت حينما تذكر «فادي» وهو يصارع الموت و«ماجدة» وهي تقبّله. بعد أن انتهى من «أنس» قبّل «مَرام» واعتذر لها عن كل ما حدث وما عانته من دونهما بالرغم من أنها كانت تردد له جملة واحدة بأنه ليس له أدنى ذنب فيما يحدث لهما، وأنه متضرر مثلها، ولكنه يعلم في داخله أن له علاقة وثيقة بما يحدث بل إنه هو أساس ما يحدث. وهنا قرر أن يواجه «ماشا» التي تجلس معه الآن



بمفردها، حارساها ينتظرانها في مكان ما، فهما افترقا عند مدخل البيت، وبالإضافة إلى أن بعد رجوع ابنه لأحضانه واطمئنانه عليه فلن يستطع أحد مرة أخرى أن ينتزع ابنه من بين يده إلا بعد أن تفارق الروح الجسد.

طلب «سليم» من «مَرام» صنع فنجان من القهوة وأن تأخذ معها «أنس»، ثم جلس وأخذ نَفَسًا عميقًا وقال:

– أعتقد أني أحضرت لك كل ما تريدين من شارات!

– وأنا أوفيت بوعدي.

– لماذا عُدتِ معي إلى البيت؟

– ألم يقل لك آدم إنك الحفيد المختار؟ حتى الآن لم تفهم!

– لا لم أفهم!

قالها وهو يجزّ على أسنانه.

– اهدأ يا صديق، فأنا لم أتركك وجالسة معك داخل بيتك، ألم يعطك هذا شعورًا بالاطمئنان؟

– اطمئنان!!!



أنا منذ أول يوم رأيتك فيه وأنا لا أعرف معنى كلمة الاطمئنان، وغير هذا أنا متأكد أن وجودك هنا ليس اعتباطًا وأكيد يحمل معه سببًا قويًا، هذا أكثر ما يشعرني بالقلق، إنك من السهل أن تأخذي شارات الكنز وتذهبي للحصول عليه، أليست هذه اللحظة التي تنتظرينها منذ أعوام كما قلتِ؟

ردت في هدوء وثقة:

– أنت طلبت من «مَرام» أن تحضر لك فنجانًا من القهوة، أليس عندكم مقولة «إكرام الضيف واجب» أم أنها لا تسري عليك، مع أني أعلم أن لا ميزة لدى العرب مثل فريضة الضيافة!

أنهتها بابتسامة خبيثة، فقام وهو يتمتم:

– إبليس يضحك!!! لم أعد أحتمل هذا الوجه أكثر من ذلك يا ربي!

ثم تركها واتجه لـ«مَرام» في المطبخ وطلب منها إحضار فنجان آخر أيضًا دون سكر، وعاد للعجوز التي أمسكت بحقيبتها وأخرجت منها المخطوط.

– لست أنا من أشركتك معي في رحلتي وحياتي، بل هو المخطوط الذي ذكر جميع الشارات التي أحضرناها.



قال مقاطعا لها:

– تقصدين التي أحضرتُها وعانيتُ للحصول عليه بينما أنتِ فور الوصول تذهبين للعدم وتختفين!

– الغبي يا صديقي دائمًا سيظل غبيًا!

وأكملت وهي تترجل يمينًا ويسارًا:

– أنا أفنيت عمري بأكمله وأنا أبحث عن أماكن الشارات التي أحضرتها أنت في ساعات، أنفقت سنوات العمر وأموال جدي، لم أترك زقاقًا إلا وبحثت فيه عن أي دليل، ثم أنا لم أتركك للحظة، أنت شخص جاهل فعلًا لا أعلم من أين لك بلقب أستاذ جامعي! وغير ذلك صاحب رسالة تؤكد لك أننا لسنا في العالم لوحدنا، أنت أفنيت سنوات من عمرك تجادل أساتذتك حتى تقنعهم بوجهة نظرك عن عالم الروحانيات، هذا العالم الذي لو كان العالم بأكمله يحاول أن يقنعني بوجوده لم أكن فاعلة إلا إن أريتني هذا بأمّ عينيّ، والآن أنت تشكك بهذا المخطوط وب«عائنة» وبحدسك! إنك أشبه بالحمار الذي يحمل على ظهره مجموعة كتب..

ثم سكتت برهة وأكملت بغيظ:



– سأريح عقلك أيها المتعجرف، فعلًا العاقل فقط هو من يفهم من الكلمة الواحدة عشر كلمات.. أنا تركت لك الطريق حتى تفتح أمامي معبرًا لمكان الكنز، ولكن حتى الآن أنا لم أصل إليه ولا أعلم ما هي الوجهة القادمة، لذا فأنا معك هنا الآن.

فقال بسخرية:

– وهل للعالم أن يجعل الحمار هو من يسوقه!!

– الأقدار هي من شاءت ذلك ولست أنا!

ثم قامت من جلستها وجلست بجواره وأردفت:

– والآن سأكشف لك عن كل ما في جعبتي.. كنت أنت أصعب الشارات لأن لا وصف لك في المخطوط غير أن قدر الكنز مربوط باسمين وبجوار ذلك «الحفيد المختار».

وهنا أخرجت لوح الكوكوي سان وحكَت له أنه كان الخيط الأول الذي أوصلهم ل«عائنة» ومنها إلى المخطوط.

أخذ من يدها اللوح وظل يقلّب فيه وهو يقول:

– لعبة تقوم بتوصيل شخص لجنّ والجنّ معه مخطوط والمخطوط يجعلنا ندور العالم بحثًا عن



شارات...

– هدّئ من روعك هذه هي الحياة؛ بمخطوط أو دون أحداث متصلة لأشخاص منفصلة. دعني أكمل لك باقي حلقات الدائرة.. سألت روح الكوكوي وهي من دلتني على اسمك بالكامل، كما هي من دلتني على أسماء الأشخاص أصحاب الشارات. المعاناة هي أنك تبحث عن إبرة بين كومة قش، أي كيفية الوصول إليكم من بين بلايين البشر في هذا الكوكب، وحينما كنت أصل للاسم أجد منه مليون اسم مكرر، إما يقع لرجل متوفّى أو طفل رضيع أو.. أو حتى أعود مرة أخرى إلى روح الكوكوري وأسالها من بينكم، إلا أنت.. كنت أول اختياراتها منذ البداية، حتى إنها دلتني على مصر مع اسمك غير كل الشارات.

هنا شعرت بأنه شرد منها حتى إنه لم يعد ينظر لها، فوضعت كفها الصغير على كتفه محاولةً منها التقرب منه للوصول لأي كلمة تعينها وقالت:

– ما بكَ.. أما زلت لا تصدق ما يحدث؟ أخبرني بما يجول في خاطرك.

أشاح بيدها بعيداً عنه وقال:



– لا، أنا أصبحت متيقنًا مما يحدث قلبًا وقالبًا، فقط عقلي يريد أن يستوعب ما تقولينه ويربط الأحداث مع بعضها.

هنا عيناها لمعت فرحًا لأنه بدأ في التجاوب معها ويجاري موجة الأحداث، فتابعت في هدوء:

– القدر يذهب لصاحبه يا «سليم»، روح الكوكوري ما هي إلا أداة ووسيلة لتربطنا بالقدر وبالأحداث، إذا لم تكن هي ستتواجد غيرها ألف وسيلة، المهم في النهاية ستمضي الأحداث كيفما مقدّر لها، وحتى لو أن هناك أشياء لم تُذكر في المخطوط حتمًا سنتعثر بها في الطريق، هذا هو القدر سيأتيك حتى لو كنت من سكان القمر.

قال «سليم»:

– السؤال هنا.. ما معنى أن الكنز مربوط بياسمين؟!

هنا صفقت العجوز «ماشا»:

– الآن بدأ عقلك المسكين يعمل بعد أن أقنعتني أن الحماقة داء ليس له علاج، والآن بعد أن عرفت كل شيء أتفضّل أن نكمل المسيرة بمفردنا ويظل «أنس» و«مَرام» تحت قبضتي؟ أم أنهما يرافقانا فيما تبقى؟



– لو فكرتِ مجرد التفكير في الاقتراب من ابني وزوجتي مرة أخرى لن يشفي غليلي منك قتلك في ميدان عام.

– في كل الأحوال لن تستطيع فعل شيء فالكل تحت قبضتي، أنت فعلًا شخص أحمق، ألم يحذرك الراهب إسكندر في المسكوبية من «عائنة» وما تستطيع فعله!

هنا سكت «سليم» لبرهة وعاد لهدوئه:

– لن أفارقهما، وكل خطوة قادمة سيكونان معي وبقربي وسنحذوا نفس الخطى نحن الأربعة.

– إذن فلك ما طلبت منذ هذه اللحظة؛ لن نتفارق نحن الأربعة.

بعد ذلك جلس مع «أنس» واطمأن على أحواله وسأله عما فعله في غيابهما عنه، وحاول أن يستفسر عن المكان الذي كان فيه ولكن الصغير لم يفده بشيء غير أنه كان في شقة ومعه مربيتين تحسنان معاملته، وحكى له «سليم» عن جزر سليمان وروعتها ووعده بأنهم سيقومون بزيارة لها عن قريب. ثم دخل الطفل لينام وكانت «مرام» بجواره إلى أن اطمأنت عليه بأن هدأت أنفاسه ونام. قامت وجلست في الركن الذي تصلي



فيه وقامت بإشعال شمعتين وأمامها صورة يسوع وظلت تشكره لأنه مد يد العون لها ويحيطها بالنعمه وأعاد ابنها وزوجها سالمين.

* * *

في هذه الأثناء كانت العجوز تجلس وتقرأ كتابًا وأمامها «سليم» يرمقها بنظرات مخفية بينما يقلّب بين قنوات التلفاز، وإذا بها فجأة تركت الكتاب جانبًا وأخرجت لوح الكوكوري ومعه المخطوط وذهبت بهما لطاولة السفرة، وفي ظلها كان يقف فقالت له بنظرة اللامبالاة التي يكرهها وبشدة:

– أريد منك مساعدة.. أنا في الحقيقة سألت روح الكوكوري عن آخر فقرة في المخطوط لأني لم أجد لها تفسيرًا حتى الآن، ولكنها ولأول مرة لم تجبني، وكنت سأذهب إلى عرافة في اليابان بعد أن أجمع الشارات لربما تفيدني بشيء ولكني كما تعلم أفضل الذهاب أينما يأخذني القدر، وبما أنك بتّ الآن تعرف كل شيء عن المخطوط وأصله وكيف لي به، فلزم الآن أن تشارك فيه، وكما وعدتك في البداية ستصبح السيد قشة المحظوظ وستنال نصيبك من الكنز، ولكن بالشكل الذي أراه أنا.

فقال لها بسخرية:



– ألم أكن منذ قليل هذا الشخص الجاهل الذي لا علاج له؟!

– نعم أنت جاهل، حتى الآن لم أغير نظرتي لك، لأنك إلى الآن لم تدرك أهمية هذا المخطوط ولا أهمية الكنز أيها الحفيد المختار، هذا الكنز أفنيت عمري بأكمله في الركض ورائه حتى أستمتع به في الحياة الأخرى وأرزق بعمر نوح وكنوز قارون، حينها ستصبح سلطة العالم بين يديّ.

ثم سكتت برهة وقالت وعيناها تزوغان يمينًا ويسارًا:

– وهي أيضًا وبني جنسها لهم نصيب معنا في الكنز.

فهم «سليم» أنها تتحدث عن «عائنة» ولم يرد الخوض معها في تفاصيل عنها أكثر من ذلك خشية أن تسمع «مرام» ويتملكها الخوف.

– قومي بفتح المخطوط ودعيني أرى الحلقة المفقودة.

– تعال هنا بجواري لأترجم لك ما يحويه بالعربية، هنا الشارات بالترتيب ثم ذكر الشخص الذي سيقوم بتجميعها أي أنت الحفيد المختار، وبعدها



الجملة التي لم تُفسّر حتى الآن: القدر بين اسمين. وبعدها وصف الكنز بالرسم، تبدأ من نهر الجنوب مرورًا على الجبال والبحار والبلدان حتى تصل لهذه الصخرة.

هنا لمعت عينا «سليم» الذي لم يتخيل من قبل ما حجم هذا الكنز وقال ربما مثل ما يشاهد في الأفلام والأساطير؛ صندوقًا أو حتى مقبرة تحت الأرض بها كمّ من الذهب والجواهر النادرة، إنما ما تصفه العجوز هو فعلًا امتلاك لسلطة العالم وأنه هو أحق به منها لأنه هو من ذُكر في المخطوط، إذن فإدارة هذه السلطة له وليس لأحد أيًّا كان هويته، وهي في الأخير مجرد وسيلة حتى يصل له المخطوط، ولكن ما نطقه غير ما كان يفكر فيه:

– وهل يصدق عقلك أن هناك كنزًا يربط بين كل هذه المسافات مرورًا بالبلاد والبحار؟!

– نعم أنا أصدق لأن لديّ عقل يفكر ولا أطمح لهدف آخر غير الثروة، هي ما ستصنع لي سلطة، وكلما زادت أصبحت سلطتي بلا سقف. لا أبالي من يموت ومن يحيا ومن تُسلب منه أرضه ومن يقتل أخاه باسم الجهاد، المادة هي ما أسعى إليه.

هنا فهم تمامًا ما تنتويه العجوز، فهي حينما تضع يدها على الخيط الأخير ستتخلص من الجميع



ولربما كان أولهم «عائنة» إذا أمكنها ذلك، ولكنه لم يفصح عما بداخله ولا حتى بنظرة توحي بالفهم، واقتصر على وضع قناع اللامبالي مثل ما هي تفعل معه دومًا.

وظل هو و «ماشا» يفكران أين يقع هذا الجنوب، وأمسك كلٌّ منهما هاتفه يبحث على جوجل عن أي تكلمة لكلمه جنوب، وبعد مرور نصف ساعة بلا جدوى كسرت «ماشا» هذا الصمت والبحث قائلةً:

– دعنا نترك الهواتف لا فائدة من ذلك، ما نبحث عنه أمامنا ويريد منا إزالة الستار عنه.

أمسك «سليم» لوح الكوكوري وظل ينظر فيه دون جدوى، فتركه ثم أمسك المخطوط وظل يتفحص ما فيه من رسوم تتبعًا من أول شارة إلى الآخر، وهنا نطق:

– هذا الجنوب لن يخرج من هذا المخطوط، فربما يكون جنوب إحدى البلاد التي كانت تحمل الشارات، فربما فلسطين، اليمن أو الجزيرة. دعينا نذهب للعجوز آدم فهو رجل حكيم ربما أفادنا أو تكون الأسطوره التي تحدث عنها تذكر شيئًا عن هذا الجنوب.

ردت في شرود:



– لا أعتقد أن الرجل يعرف أكثر مما قاله.

وهنا كسرت شرودها وعلا صوتها بكلمة:

– مصر!

أكمل «سليم» باهتمام:

– ما بها مصر؟!

أكملت «ماشا» مضيفة:

– ومصر، فأنت من هذه الشارات والمثل الحي فيها، بالإضافة إلى جملة القدر بين اسمين، فربما التكملة عندك.

ثم أغلقت النور ووضعت العملة في وسط لوح الكوكوري وسألتها: أين يقع هذا الجنوب؟ وخيّرتها بين الأربعة بلاد، ولكنها لم تجب هذه المرة أيضًا عليها ولم تتحرك العملة من مكانها. مرت دقيقة والاثنان يحملقان في اللوح ولم يجدّ جديد.

كان «سليم» أول مرة يرى كيف يعمل هذا اللوح، فكان يقف مشدوهًا منتظرًا ماذا سيحدث، بعد أن تحدثت للوح ثم فجأة مسكته العجوز من يده وقربته من اللوح وأمرته أن يجرب هو، لربما يجدي معه نفعًا، فقام بإعادة السؤال بلغته العربية



وكانت هنا المفاجأة بأن العملة بالفعل تحركت على الأحرف، وإذا بلوح الكوكوري كلما مرت العملة على حرف من الكلمة تضئ فيه شعلة صغيرة من النار حتى آخر الحرف، ثم تنطفئ الشعلة مع نهايته وتبدأ في الحرف التالي، هكذا حتى أضاءت وأحرقت حروف الكلمة واضحة كالشمس وهي» مصر».

وهنا نطقت العجوز:

– إنه جنوب مصر، نعم أجابت روح الكوكوري أخيرًا.. إنه في جنوب مصر.

ولكن مع فرحتها وهي تمسك اللوح تحول إلى رماد إثر النار التي اشتعلت في حروفه ولم يعد اللوح صالحًا للاستخدام مرة أخرى، وكانت هذه هي نهاية روح الكوكوري في هذا اللوح، وظلت العجوز تبكي وتنتحب كالأطفال عليه وكأنها فقدت أحد أولادها، وجاءت بكيس وجمعت فيه رماد اللوح واحتفظت به في حقيبتها وهي تقول مواسية نفسها:

– أكيد هذا قدرها بأن تنتهي هنا في هذه النقطة التي سنبدأ منها، من جعلها تصمد معي وتساعدني كل هذه السنين وتنتهي هنا ، نعم هذا هو نهاية رسالتها، وهي قد أدتها على أكمل وجه..

وفجأة قطعت النواح واعتلت وجهها نظرة اهتمام حينما رأت «سليم» يمسك المخطوط ومعه عدسة مكبرة محاولًا أن يتوصل لشيءٍ ما.

وبالفعل توصل إلى أن هناك رسمًا فوق كلمة صعيد مصر، وأمسك الحاسوب الآلي الخاص به وظل يبحث عن جميع الآثار الموجودة في صعيد مصر، على أن يكون شبيهًا للرسم الموجود الذي يتمثل في رسم جبل مرسوم على جداره رسم لثلاثة أشخاص متماثلين، وأمام الجبل ما يشبه مجرى مائي. وبعد بحث استمر للساعات الأولى من الليل اهتدى «سليم» ومعه العجوز إلى أن هذا الرسم مطابق لمعبد أبو سمبل الموجود في النوبة جنوب غرب أسوان، وهنا قالت العجوز:

- فعلًا.. أحيانًا قد يتفوق التابع على معلمه، فلنذهب باكرًا وننام الآن قليلًا، أمامنا رحلة شاقة غدًا ومعنا رفقه جديدة.. «أنس» و«مَرام».

قالها «سليم» وتذكر لأول مرة معها الرؤيا التي رآها في يقظته على متن الطائرة وهو عائد إلى مصر، حينما كان يجد نفسه ممسكًا بعصا بها شعلة من نار وزوجته وابنه يسيران أمامه في ممر ضيق وعلى الجانبين رسوم ترجع للعصر الفرعوني وقد انتفض واعيًا على أن الصغير يقع في حفرة وتصرخ أمه ويقع هو مغشيًّا عليه.

اتجه كلٌّ منهما إلى السرير، وحينما دخل «سليم» الغرفة وجد «مَرام» ما زالت مستيقظة وكانت تتابع ما يجري معه هو و«ماشا»، وبطبيعة حالها العلمية كانت ترفض تصديق وجود مخطوط وكنز وكل التفاصيل التي تحملها العجوز. وظلا يتهامسان في الموضوع إلى أن دخل في دفء حضنها وحنان يدها وهو يمررها على وجهه، هذا الشعور الذي كان يفتقده وهو الأمان، إلى أن اقتربت أنفاسهما تمّ أول لقاء بين جسديهما منذ بداية ظهور «ماشا» في حياتهما. مرت الليلة بحب وأتى النهار ولكنه خلا من السلام، فقد استيقظ الجميع على صوت تكسير وكان هذا أثر انهيار زجاج المنزل كله دفعة واحدة في الأرض، ما أدى إلى صوت مدوٍّ في المكان وفزع الجميع منه ومن منظر الزجاج المهشم الذي ملأ الأرض، حينها نظر «سليم» إلى «ماشا» وكانت «مَرام» حاضرة هي وابنها ولكنه لم يستطع أن يفسر ما حدث ولا هو لا والعجوز، ولكنهما متأكدان أنها «عائنة»، فضحكت العجوز ثم ذهبت لتبدّل ملابسها وتحزم حقائبها!

وما بدر من «ماشا» جعل «مَرام» تسأل «سليم»:

– ما بينك وبين العجوز يجعلها تضحك هذه الضحكه اللئيمة؟ وما سبب ما حدث هذا؟

فردّ بعينين زائغتين:



– سوف أشرح لك فيما بعد، ليس الآن، «أنس» يقف بجوارك وسيفهم ما سأقول. الآن دعينا نجهز حقيبة صغيرة نجمع فيها المتعلقات المهمة فقط، فنحن أمامنا رحلة طويلة من القاهرة للنوبة وأرجو أن تتحدثي مع «أنس» ليستوعب أننا سنسافر في نزهة.

(٢٠)

من القاهرة إلى بلاد النوبة وأرض الذهب على ضفاف نهر النيل الخالد، بكل ما فيها من عبق التاريخ والوجوه السمراء الباسمة الطيبة، يشبهون النيل في كرمه وسخائه.

البيوت ذات الطابق الواحد والطابقين والرسوم الجدارية التي تزيّن واجهات المنازل ومداخلها، مشغولات الخرز والخوص التي تباع في الطرق.

اسمها مشتق من «نوب» أي الذهب، لكثرة مناجم الذهب التي وجدت فيها، لربما يكون هذا له علاقة وطيدة بالكنز الذي أتوا من أجله!

لم تكن «ماشا» تطيق الانتظار أكثر من هذا، بالرغم من كل السنين والسفر هنا وهناك فإنها الآن تشعر به ما هو شعور بالاستسلام ولكنه أقرب للانهيار. يحدثها عقلها أنها بلغت أخيرًا هدفها، لا يفصلها عنه إلا أمتار. ولكنها حتى الآن لم تصل لأخر الخيط ببصرها ولا بعقلها، ولهذا لم تعط أحداً منهم فرصة للراحه، حتى الطعام ابتاعوا الطعام وتناولوه في الطريق، ثم اتجهوا فور وصولهم أرض النوبة إلى الجنوب الغربي، حيث يوجد معبد أبو سمبل. وظلت تدور حوله يمينًا ويسارًا، داخله



وخارجه، وهي ممسكة بيدها المخطوط لربما تعثر على شيء يكون بوابتها للعالم الذي تبحث عنه، حتى وصل بها الحال أنها كانت تتأمل كل شبر في المتحف من الداخل وكان يشاركها «سليم» و«أنس»، بينما «مَرام» اكتفت بالجلوس هادئة وهي تردد في همس:

– لا تخف من أي ضيق.. إيد الرب أقوى من أي ضيق.

فهي متيقنة من أن الكنز الذي تبحث عنه العجوز المجنونة وهذا الحدس الذي يتملّك زوجها ما هو إلا خرافة تتبع أسطورة، وما هي إلا أكذوبة تعود لزمن فات، وحتى أنها لم تدخل معهم المعبد واكتفت بمنظر الأربعة تماثيل الضخمة للملك رمسيس الثاني وهو يجلس شامخًا مرتديًا التاج المزدوج للوجهين البحري والقبلي لمصر، وأمامه النيل والإضاءة المنبعثة خلف التماثيل المتراصة أمام مجرى الماء أضافت على المكان شيئًا من الراحة والرومانسية. صوت الرياح وموج الماء مع عظمة الفرعون وجلسته أكد في نفسها مدى عظمة تراب هذه البل، وبالرغم من مساوئها فإن هذه الأرض بها قوة ستظل سرًا من أسرار الكون مثل أسرار المصريين القدماء، يعجز أمامها العالم ويقف لها احترامًا وتقديسًا لعظمتها.



حل الليل شيئًا فشيئًا والجميع الآن يجلس بجوار «مَرام»، لا أحد فيهم يعلم ما ينتظرون، وهنا وضعت «مَرام» يداً على أخرى ونظرت للسماء ولا زالت تردد:

– لا تخف من أي ضيق.. إيد الرب أقوى من أي ضيق.

أملًا في أن ينتهي هذا الوضع، وهنا نظرت لها العجوز «ماشا» نظرة حقد وتلفظت بهمهمة

لم تسمعها «مَرام»، ولكن «سليم» سمع بعضًا مما قالت وفهم ما فحوى قصدها، ولكنه قرر عدم الرد حتى لا تنشب بينها وبين زوجته مشادة هو في غنى عنها هنا.

ولأول مرة يرى «سليم» على وجهه «ماشا» التعب ومعه لمحة من اليأس، كما أن الصغير «أنس» غفا على يد «مَرام» فاقترحت قائلة:

– دعونا نذهب لأقرب فندق ونبيت الليلة فيه.

رد «سليم» الذي كان تتملكه رجفة شديدة في أطرافه منذ وصولهم ولكنه اعتقد لأنه لم ينم ساعة متواصلة منذ أمس:



- لا، أعتقد أننا سوف نعثر على غرف متاحة الآن، وغير ذلك هو الأهم أنني أريد مكانًا يكون قريبًا من هذه البقعة.

وهنا لمح مجموعة من الرجال يشعلون نارًا ويلتفون حولها جالسين أرضًا، يبعدون عنه مسافة ليست ببعيدة، فأتته فكرة فقال:

- سوف أذهب عند الرجال حول المشعل وأسالهم عن مبيت قريب لأني أريد العودة هنا مرة أخرى.

اقترب «سليم» وألقى التحية على الرجال:

- السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته..

فرد الجميع:

- وعليكم السلام ورحمة اللّه.

فقام أحدهم يبدو عليه اندفاع الشباب واقترب من «سليم» وسأله:

- أتريد مساعداً؟

- نعم، أبحث عن مبيت لي أنا وعائلتي لليلة.

– مرحبًا بك أنت وعائلتك على أرض الدهب. أنا اسمي «عبدون»..

– وأنا «سليم»، شكلك يبدو كريمًا يا «عبدون» لهذا سأطمع في مساعدة أخرى منك، ولكن دعنا نتحقق من المبيت الأول.

– لا تحمل همّا.. منازل النوبيين كثيرة، اعتبرها كلها ملكك.

– الآن عرفت لماذا أطلق عليها أرض الذهب.

فابتسم الشاب خجلًا بينما أكمل «سليم»:

– .. لأن رجالها من ذهب.

ابتسم «سليم» وارتاح للشاب لما تحمله ملامحه ونبرته من طيبة، وعاد الشاب للرجال وتحدث معهم ثم عاد ل «سليم» وأخبره:

– اتبعني أنت وعائلتك، هناك بيت أحد الرجال سيستضيفكم الليلة عنده، ولكن أمامنا مسافة سيرًا على الأقدام، سأتقدم أنا.

وتركه وابتدت خطاه وهو متكئ على عصا طويلة بيده يخطّ بها في الرمل وهو يسير، وتبعه في الخلف الجميع.

تقدم «عبدون» بجلبابه الأبيض السكري وبشرته السمراء وهو يدندن أغنية باللهجة النوبية، لم يفهموا مما يغنيه شيئًا ولكن نبرة صوته وجمالها جعلتهم يستمتعون رغم طول الطريق، إلى أن وصلوا لبيت متواضع من دور واحد وبه غرفتين.

فقال «عبدون»:

– تحقق من البيت وإن لم ينل إعجابك هناك غيره.

– تكفي حسن الضيافة يا «عبدون»، وغير ذلك فهو سيفي بالغرض؛ كلها ساعات وسنرحل.

– كيفما تشاء.

قالها وتركه في بهو البيت وخرج يجلس أمام البيت يشرب سيجارة.

حينما وصلوا كانت «مَرام» تكاد تقع من التعب والإرهاق، وقامت بوضع «أنس» على السرير ونامت بجواره دون مقدمات ولا كلام مع «سليم». وكاد صوت أنفاسها يملأ المكان حتى أن الصغير استيقظ وحاول أن يوقظها لأنه ظمآن ولكنها لم تجب، فذهب إلى أبيه الذي أطعمه من الخبز والجبن الموجود في البيت وروى ظمأه، بينما ذهبت «ماشا»



إلى الغرفة وحاولت رغم سوء الإرسال أن تهاتف حارسيها وأبلغتهما بمكانها.

ثم خرج «سليم» وجلس مع «عبدون» على المصطبة أمام البيت ومعهم «أنس»، وسأله عن شخص يكون على دراية كاملة بالمكان، وبالأخص البقعة الموجود بها معبد أبو سمبل.

– هناك الكثير من مرشدين في النوبة ممكن يذهبوا معك أينما تريد، ولكن يفضل صباحًا حتى ترى المعبد من الداخل والخارج، وهناك أيضًا العديد من الأماكن الأثرية الجميلة إذا أردت الزيارة.

فرد «سليم» مفسّرًا:

– لا يا «عبدون» ليس هذا ما قصدته، أنا أبحث عن شخص روحاني، طاعن في السن مثل جدود جدودك ويكون على علم بحكايات وأساطير عن المعبد والمكان الذي يحيطه.

– فهمت قصدك.. توجد «الراوية».

– «الراوية»!

– نعم.

– إسمها «الراوية» أم صفة لأنها تروي الحكايات؟



– لا هو هكذا اسمها، لا نعرف لها اسمًا آخر ولا أحد يعرف كم العمر الذي تبلغه، وليس لديها أقرباء من الدم ولا أوراق تثبت ماهيتها، يمكن هذه الصفة التي يشترك فيها أغلب النوبيين، ولكن كل من حولها يقوم بخدمتها ويحبونها دون مقابل ويعتبرون وجودهم بجوارها شرفًا لهم ويزيدهم بركة.

فسأله «سليم» الذي بدا الاهتمام على ملامح وجهه:

– أهي تعلم شيئًا أو قصة ما عن منطقة المعبد؟

– بالرغم من أنها ضريرة فإنها تبصر أحسن منّي ومنك، هي من أهالي النوبة القديمة الذين مارسوا وشهدوا السحر والجنّ والعوالم الغيبية، وهي تعرف معظم الحكايات النوبية القديمة التي تُحكى عن عوالم المردة والأقزام والسحرة، أظن أنها تحمل واحدةً للمعبد.

لمعت عينا «سليم» ومن خلفه عيني «ماشا» التي تسللت ووقفت خلفه لتسمع ما يُقال، وطلب منه أن يأخذه إلى بيتها فرد «عبدون»:

– في الصباح الباكر أمر عليك وآخذك إلى بيتها.



- أريد أن أذهب الآن يا «عبدون»، أرجوك ساعدني الأمر لا يحتمل التأجيل.

أجابه «عبدون» مستسلماً:

- ما باليد حيلة.

- أشكرك يا «عبدون»، أنت الملاك الذي سقط لي من السماء.

- ولكن عندما نذهب إذا رفضت رؤيتك سنظل أمام البيت حتى الصباح حينما تستيقظ، أنا أخبرتك أنها مسنّة وطاعنة في السن، وعادةً لا تقابل أحداً بعد غروب الشمس.

الساعة قاربت على منتصف الليل، وصلوا إلى بيت الراوية واصطحبوا معهم «أنس» لأن «سليم» خشى أن يتركه بمفرده وكانت «مَرام» تغوص في النوم، كما أن الصغير ألحّ في الطلب على الخروج معهم بعد أن قرأ على شفاههم ما يقولون عن «الراوية».

دق «عبدون» باب بيت «الراوية»، فتحت له سيدة أربعينية سمراء ترتدي حجاباً وعباءة سوداء اللون، طلب منها أن تخبر «الراوية» أن هناك أناس يريدون مقابلتها، وإن لم تستطع الآن فتسألها إن أمكن ينتظرون هنا داخل ساحة البيت حتى تأذن لهم.



دخلت السيدة إلى «الراوية» التي كانت تغفو وهي جالسه كعادتها، فهي نومتها طيلة الليل على هذه الهيئة، وقبل أن تنطق السيدة بالطلب قالت «الراوية» وهي تنظر لأعلى بعينيها البيضاوين أن تسمح فقط للغريب بالدخول.

فقالت لها السيدة:

– إنهما اثنان، رجل وسيدة عجوز غرباء ومعهم طفل غير «عبدون» النوبي.

فكررت «الراوية» جملتها بأن تسمح للرجل الغريب فقط بالدخول.

فخرجت السيدة وقالت:

– «الراوية» تسمح للرجل فقط بالدخول والباقي سينتظر هنا.

هنا نظر «سليم» و«ماشا» إلى بعضيهما البعض فقالت له:

– هيّا ادخل وائتِ بما نريد، ولا تقلق.. «أنس» معي.

ونظرت له بخبث.

دخل «سليم» ل«للراوية» ورحبت به وهي تقول:



– اتفضل اقعد، الغيبة طالت!

– أتقصدينني أنا يا سيدتي؟!

– أهناك أحد غيرنا في الغرفة؟!

ثم سكتت ونظرت لأعلى وقالت:

– التي تسير معك كضلك تقف بالخارج مع العجوز.

– أتقصدين «عائنة»؟

فرددت وهي تحرك رأسها لأعلى وأسفل:

– احفظنا يا رب بحفظك من الأرواح الخبيثة.

جلس «سليم» في الكرسي المجاور للأريكة التي تجلس عليها «الراوية»، وتكاد يداه ترتجفان من الخوف ولا يعرف كيف يبدأ معها الكلام، ولكنه كان متيقنًا من أن لديها شيئًا له، فهو لم يقع في شخص في هذه الفترة من حياته إلا وله علاقة به. كسرت «الراوية» الصمت سائلة:

– انطق بما تريد، أنت الضيف المختار، أنتظرك من زمن الزمان.

– الضيف المختار!!!

رددها «سليم» خلفها ولكنه اطمأن أنه في المكان الصحيح وأكمل سؤاله:

– معبد أبو سمبل.. عندك ما يربطني به؟

– الحكايات والأساطير كثير من الناس يعتقد أنها لا تمتّ للواقع بصلة وأنها مجرد خيال راوٍ، ولكن هذا ليس صحيحًا يا بني؛ لولا أن لها صلة بأشخاص وواقع لم نكن ستعرفها يومًا، الراوي ما هو إلا توثيق الحكاية للأجيال القادمة.

ثم همّت بالوقوف وهي تتحسس مكان عصاها للاتكاء عليها، فوقف «سليم» ومد يده ومسكها من رسغها حتى تستند عليه. بيدٍ مسكت العصا ويدٌ ترتكز عليه وحينما استقر جسدها في موضع الوقوف قالت:

– دعنا نسير للخارج حتى تعرف ما تريد وترحل وتتركني لأستريح.

وبالفعل خرجت لساحة المنزل الداخلية حيث «ماشا» و«أنس» و«عبدون»، ثم خرجت ولا يزال «سليم» يمسك بيدها ويده الأخرى حول وسطها لترمي بالحمل عليه، وخلفهم الثلاثة يتبعونهما للخارج.



حينما خرجت من بوابة المنزل خطت حوالي أربع خطوات ووقفت ثم استدارت لواجهة المنزل وقالت:

– تخيل معي يا «سليم» أن هذا الحائط هو واجهة المعبد، وهنا الأربعة تماثيل للفرعون، وفي نفس المكان الذي نقف فيه كان مجرى النيل ولكن ماء النيل غطت المعبد وكاد يتآكل فأعادوه للخلف.. أدرست هذا يا «سليم»؟

لم يفكر عقله في الإجابة إنما انشغل من أين لها باسمه، وبالرغم من أنه لم يعد يشعر بالاندهاش من شيء مما يحدث معه وحوله فإنه نطقها دون وعي:

– «سليم»!

– أهناك «سليم» غيرك؟!

– من أين لكِ به؟!

– لا زلت تسأل وأنت لا يفصلك خطوات عنه!

– عن ماذا؟

– قدرك.

– قدري أم الكنز؟ أم هو نفسه ذاك؟



– قدرك معك هنا وهو من سيصطحبك إلى هناك.

– هناك أين؟!

وهنا نظرت «الراوية» للأرض وتنهدت واتكأت بيديها الاثنتين على العصا وقالت:

– كومة.. كومة، جاكم اللّه «حكاية.. حكاية.. من اللّه».

فرد عليها «عبدون» والسيدة:

– خيرون.. خيرون، جاكم اللّه «خير.. خير من اللّه».

– كفاك أسئلة كله بميعاد، واسمع ما جئت لاجله، لم أعد قادرة على الوقوف..

وأردفت:

– من قديم الزمان زار أرضنا السلطان الحكيم «سليمان» من بلاده من عند النهر الكبير ووصل بسرعة الريح، تعب من قومه وكان يقدم لهم كل شيء وكانوا بجهلهم يكذبون ويرفضون منه كل الخير، وأحبابه يصيرون أعداءً إلا ما رحم ربي منهم، إلى أن طفح به الكيل، كان يتمتع ببصيرة بما سيأتي، وأنعم عليه ربه بالحكمة والخبرة في أشياء عديدة نجهلها نحن حتى الآن، بنى سبيلًا متواضعًا



أمام المعبد وكان ينام الليل بجواره ويجلس متكئًا عليه في النهار ولا يغادر مكانه. وكلما احتاج الناس مشورته يذهبون عند السبيل، يأخذ بنصيحته الرجال والنساء، وكلما اشتد الفقر وضيق الحال على الناس ويأتون للشكوى يخبرهم أن الخير هنا كثير لن ينضب أبدًا، ستُرزقون به في الأيام البعيدة، سيبدأ من هنا.. وأشار بيده على السبيل ومنه للنهر الكبير، وقال إن الخير الذي سيجدوه سيكفيهم لقرون إذا بقى هذا السلام بينهم، ولكن حالما تتصارع النفوس وترفع السيوف وتقتل الأرواح سينضب في أعوام، الخيار يعود لكم. ومن بعدها اختفى السلطان سليمان وعاد لبلاده، ومن حينها كلما ضاق الحال بالناس ذهبوا لمكان السبيل وتضرعوا للخالق وكان يستجيب لهم ويرزقهم ويجبر المحتاج، إلى أن جاءت الريح وحركت الرمال وهاج الماء وتهدم السبيل والباقي منه اندثر، وإلى الآن تتداول الأجيال وتحكي عن الخير الذي شهدته هذه الأرض بعد أن عاد السلطان الحكيم لبلاده، ولكن الطمع لا يترك شيئًا على حاله؛ يأكل النفوس قبل الفلوس.

تنهدت «الراوية» وبدأ جسدها في التراخي من التعب، وقالت لـ«سليم»:

– أدخلني إلى قعدتي، حكايتك التي أتيت لأجلها انتهت، وأنا ومعها انتهت قدماي وأريد أن أغفو.

ثم علت نبرة صوتها:

– الكل يرحل، لا يبقى أحد منكم في الدار وأولكم هذه الملعونة هي وقبيلتها ليوم الدين، نحن نخاف من رب العالمين.

(٢١)

وهم في طريق العودة للبيت المستأجَر مع «عبدون» سأل «أنس» «سليم» فقال ملوّحًا بيده:

– ما معنى سبيل؟

– هو مبنى يوجد منه كبير ومنه الصغير على حسب، وهو لسقاية الناس الماء، لعابري السبيل والمارة.

وبالرغم من تردد «سليم» في البداية أن يجيب على «أنس» وكانت أول مرة يتردد فيها خشية منه أن يقحمه في الأحداث، ولأنه معتاد أن أي سؤال منه يقابَل بشرح وافٍ وكافٍ لأن إدراكه لمعنى الأشياء أكبر من سنه بكثير، فإنه في النهاية كان ما اعتاد عليه. وكانت تتابع حديثهما «ماشا» التي اكتشف «سليم» أنها تفهم لغة الإشارة جيداً جدّاً، بالرغم من أنها لم تتحدث بها أمامه مع الصغير الذي أبدت إعجابها الشديد بذكائه رغم صغر سنه، ولكن حينما كان يتحدث الطفل مع والديه تقوم بالتدخل وتتكلم معهما في الموضوع دون استخدام الإشارة فهي رأت أن «أنس» يجيد تفسير لغة الشفاه.

ظل الولد يسأل أبيه على كل كلمة قالتها «الراوية»، كان يجاوب تارة وتارة يتهرب من السؤال،

إلى أن أشار «أنس» بجملة أثارت انتباه العجوز وكانت هي المحرك الأساسي للأحداث المتتالية.

أخبره أن اسم السلطان الحكيم الذي حكت «الراوية» قصته هو اسمه «سليمان»، أي أنه يجمع بين أول اسمين من اسم والده هو؛ «سليم أنس داوود».. «سليم- انس»، تزيد فقط السين وإذا كانت فهي اختصار لكلمة سبيل، فاسمهما هما الاثنان ما هو إلا «سليم ان س» أي «سليمان س»، فهو اختصار

«سبيل سليمان».

لم يعره «سليم» اهتماماً لأنه معتاد منه على تحليل كل شيء حوله، غير ذلك كثرة أسئلته جعلت أبيه لا يهتم بما يقول، غير أنه يتهرب من أسئلته الملحة، بالإضافة إلى أنه كان يزيد من خطاه حتى يصل لـ«مَرام» النائمة بمفردها في البيت حتى يطمئن عليها، ثم سيذهب إلى المعبد لربما وجد أثراً مما قالته «الراوية».

ولكن.. «ماشا» وضعت مليار خط تحت ما قاله «أنس» وظلت تفكر وتتراءى كل الأحداث التي مرت بها أمام عينيها إلى أن جاءت أمام عينيها الجملة المذكورة في المخطوط بأن قدر الكنز مربوط بين اسمين، أي أن ما يقوله الصغير أقرب تفسير لهذه



النقطة. وظلت تسأل نفسها ما زالت هناك حلقة مفقودة! ماذا سيضيف لنا هذا الجد المتوفّى المدعو أنس؟ وهنا توقفت وظلت الكلمة تتردد في عقلها وهي تنظر للصغير.

«أنس».. «أنس».. «أنس»، إنه الحفيد المختار المقصود في المخطوط وما كان «سليم» إلا تكملة لابنه حتى يحضر الشارات، ولكن المدخل للكنز مع الطفل وليس الجد المتوفّى، ومن هنا بدأت تعد الدقائق التي تفصلها عن الحلم.

الصغير لا يقل أهمية عن «سليم» أو لربما – وهذا ما كانت تميل له نفسها – أن مفتاح الكنز مع «أنس» الصغير، وهو الحفيد المختار وليس أبيه الذي انتهى دوره في تجميع الشارات، وأن القدر هو من ساق الأحداث حتى يرافقهم الطفل، فهو الحفيد المختار لجدته اليهودية وابن لأم مسيحية ومن نسل أب مسلم، وهذا ما كان يملؤها حقداً وكرهاً له، وبالرغم من وصول المعنى لها فهي ما زالت الأحق بالكنز ولن تسمح لأحد أن يشاركها فيه.

بالرغم من أن «سليم» لم يلاحظ خطورة ما قاله الصغير فإنه كان يشعر بشيء مختلف منذ وصوله بجوار المعبد، بالإضافة لمقابلة «الراوية»؛ زودته بشعور أنه أمام الكنز ولا يفصله عنه إلا ستار يحجب الرؤية الكاملة، وهنا قرر أن يحرّض «عائنة» على

صديقتها ورفيقة السنين في حين وجد الكنز؛ تأخذ صفّه حتى لا تستخدمها «ماشا» في أذيته أو أذية أحد من أفراد عائلته، غير ذلك لأنه كان متيقناً من أنه حينما تضع «العجوز» يدها على أول النهاية ستكون تخلصت منه هو ومن معه وأولهم الحيّة إذا كانت تملك القدرة عليها، وشخصية مثلها من المؤكد أنها تعرف طريقة للتخلص من «عائنة».

بعد أن وصل للبيت واطمأن على «مَرام» ونام «أنس» بجوارها ورحل «عبدون»، تحدثت «ماشا» في الهاتف ولكنه لم يسمع ما قالت برغم من محاولته، ولكنها كان قد بدا عليها الإرهاق لدرجة أنها وضعت حقيبتها التي تحمل فيها الشارات في الأرض بجوار السرير وغاصت في نوم عميق، لدرجة أن صوت شخيرها كان يدوّي في البيت، فانتهز هذه الفرصة وخرج أمام البيت وظل يحادثها كأنها تقف أمامه:

– أعرف أنها أول مرة أتحدث معكِ ومتيقن من أنك معي الآن وتسمعينني جيداً. أريدك أن تفهمي جيداً أن «ماشا» حالما تضع يدها على أول الكنز ستتخلص منك ومنّي ومن كل من لديه معرفه بالكنز حتى حارسيها اللذين يتبعانها كالظل. أنا أعرف عن العهد الذي كان بينك وبين جدها وانتقل لك ولكن هي أجبرت عليه من جدها لأنه وعدها بأن سيكون لك نصيب مثلها، كما أنها أخبرتني أنه



قال إذا أخلت إحداكما بالوعد يحق للأخرى أن تتخلص منها، هو كان يعرفك جيداً وظل لسنوات تحت إمرتك وأنت تحت خدمته ولم يحدث بينكما أبداً خلاف على ما أظن ذلك.

ثم سكت لبرهة ورفع رأسه للأمام كأنه يقترب من نظرها وأكمل:

– أكيد هو كان يقصد بهذا حفيدته، فهو لم يرَ منك خيانة قط، وزوجته تركته بسببك لربما أخبرت ابنتها وهي قالت بدورها ل«ماشا» ومن حينها وهي تضمر لك الكراهية والانتقام، غير ذلك هي في كل الأحوال لن تسمح لأحد بمشاركتها في حلمها.

وهنا تحرك حجر كان على الأرض على بُعد متر من قدم «سليم» وطار بعيداً كأنها تعلن عن غضبها مما يقول، ولكنه أكمل رغم ذلك:

– تفوهَتْ ذات مرة بأنها تعرف طريقة للتخلص منك، فحينما تكونين في هيئتك المادية من السهل أن يُقضى عليك، بالإضافة إلى أنه ليس عندها لا وريث ولا خليل ولا شخص تخاف أن ينتقم منه بني قبيلتك.

وهنا انخفض مستوى الصوت وهمس:



– سأكون لك أنت فقط حالما تأخذ «مَرام» «أنس» وتسافر، لذا فنحن في نفس الكفة، فعليكِ أن تتعقلي وتقرري إلى أي الجهتين ستنضمين.

ثم قام ودخل البيت دون أن ينتظر منها رد فعل بالإيجاب أو السلب، اكتفى بأنه زرع فيها الشك من ناحية رفيقتها، هو حتى لم يستطع أن يتوقع مردود ما قاله عليها، وما لا يعرفه أن هذا الشك موجود عندها ودائمًا تتعامل هي و«ماشا» بتحدٍّ منذ وجود جدها «يوكي يو».

ثم دخل وجد العجوز ما زالت على وضعها، غير أن صوت شخيرها علا عما كان، وجد أنها فرصة لن تعوّض أن يأخذ حقيبتها و«أنس» و«مَرام» ويهرب، أو على الأقل يقايضها بهم حتى يضمن أنها لن تتخلص منه حتى النهاية.

اقترب من زوجته هامسًا وهو يربّت على كتفها بلمسة خفيفة:

– «مَرام»..«مَرَام»؟

– ماذا دهاك؟! وما القلق إلى يعتري وجهك هذا؟

– لا تقلقي لم يحدث شيء، غير أن العجوز نائمة فوجدتها فرصة حتى نتسلل ونخرج من البيت.



– ماذا إن أفاقت ونحن سائرون؟

– لا تقلقي، ألا تسمعي صوت شخيرها!

فقامت «مَرَام» بهدوء واقتربت من «أنس» حتى لا يستيقظ وهما في الخارج ويحدث ضجة في بهو البيت وهم راحلون، فحملته وأجلسته على فخذيها وظلت تقبّل وجهه حتى استيقظ وفتح عينيه فابتسمت برقّة وقالت:

– سأخبرك بشيء شديد الأهمية وأرجو منك ألا تُحدث ضجة حتى لو عندك سؤال، انتظر حتى نخرج من هنا ثم اسأل كيفما تشاء، أما الآن أريد منك أن تخرج معي بهدوء وأن تسير على أطراف قدميك حتى لا تستيقظ العجوز.

لم يستطع «أنس» هنا ألا يسأل فأشار:

– لماذا؟

فأردفت:

– لأن والدك اكتشف أن نواياها سيئة وتريد أن تلحق بنا الأذى، ولكن لا تقلق.. ما دام والداك معك فلن يستطيع أحد أن يضرك بشيء.



لم يخف الولد مما قالت وتشجع، حتى إنه سحبها من يدها وهو يضع إصبعه على فمه ليقول لها «لا تتحدثي وسيري في صمت» حتى وصلا إلى خارج البيت.

في هذه الاثناء كان يتابعهما سليم بنظره حتى خرجا، فذهب إلى غرفة «ماشا» وتحرك بهمس وأخذ الحقيبة من الأرض ونظر فيها ليطمئن أن الشارات جميعها بداخلها، ثم تسلل خارجًا ليجد «مرام» تقف حاملة «أنس» بين يديها، فطلب منها أن تسرع خطاها بينما هو أخرج جميع الشارات من الحقيبة ورماها في الطريق وحمل «أنس» على يده ومعهما الشارات، يحمل الصغير التمثال للسلطان وهو يجلس على الكرسي وبيده البلورة بينما حمل هو في يده المفتاح وارتدت «مَرام» التي تهرول بجواره الخاتم السداسي. ظلا يجريان في العتمة هربًا من العجوز، خوفًا أن تستفيق، ودون تخطيط منهم أخذهم الطريق إلى المعبد وهنا حدثت المعجزة التي رآها «أنس» فقط، أمام كيان المعبد بأمتار، تقريبًا نفس المسافة التي كانت تقف فيها «الراوية» وهي تحكي، وبين جدار منزلها أضاءت البللورة الموجودة في التمثال في يد الصغير الذي لوّح مفزوعًا:

– انظر يا أبي!!

– ما هذا؟! هل ضغطت على شيء بها أو انكسرت؟؟

– لا، ولكنها أضاءت حينما ظهر هذا الجدار.

– عن أي جدار تتحدث؟

– هذا و...

قام بالإشارة عليه بإصبعه ثم طلب من أبيه أن يتوقف ثم نزل من على يده وتقدم عنه بخطوات أمامه في اتجاه جدار ذهبي هائل يلمع في عتمة الليل، وكأنه شمس أشرقت. وظل يتحسس الجدار بيده الصغيرة في ذهول إلى أن وصل انعكاس الضيّ الذهبي في مقلتيه، وهنا رأى «سليم» و«مَرام» ما يرى ورأوا ما ارتعدت له مفاصلهما ولمعت عيونهما له. وظهرت أمامهم ثلاث أماكن فارغة على الجدار، أول واحد وضع فيه الحفيد التمثال السليماني الذي فتح خلف الجدار مساحة هائلة وكأنها مدينة كاملة من القلاع والأشجار تشيّد أمام ناظرهم من الذهب الخالص، كأنه نور سدرة المنتهى، ولها بريق في تفاصيلها يضئ كالجواهر الثمينة.

ثم عاد الصغير إلى أمه التي اتسعت عيناها لما تراءى أمامها من سحر أخّاذ، وناولت «أنس» الخاتم



السادسي وعاد للجدار وقام بوضع الخاتم في الفراغ الثاني، ومعه أحدث الجدار صوت ضجة عارمة كأنها أقفال من حديد تنفتح، سمعها الصغير رغم المعاناة حتى إنه وضع يده على أذنيه. ومع الضجه شُيّدت قلاع وقصور خلف ما ظهر في المرة الأولى، حتى أن بصرهم لم يصل لمنتهاه، وهنا كان الاثنان يرتجفان بالمعنى الحرفي من هول ما ترى أعينهما. وتبقى آخر الشارات وهو المفتاح الذي سيفتح الجدار الذي يفصلهم عن الكنز. عاد الصغير وأخذه من يد أبيه وهو في طريقه للعودة للجدار ظهرت هنا العجوز «ماشا» لتسجل أهم هدف في مرماها وخلفها حرسيها الاثنين، واحد منهما أحاط رقبة «مَرام» بيده وفي يده الأخرى سكين كبيرة تشبه السيف في حدته وحجمه، وقام بوضع سنه بالقرب من رقبتها.

توقفت «ماشا» ونظرت ل«سليم» وقالت في ابتسامة خبيثة:

– آسفة يا صديقي، فما من رسام استطاع أن يأكل التفاحة التي رسمها.

حينما رآها «سليم» همّ بالجري نحو «مَرام»، فوقفت العجوز أمامه محذرةً بصوت رخيم:



– إن لم تلتزم بقواعد اللعبة حتى النهاية ستصعّبها على نفسك ومن معك، سآمر بقتلها هي و«أنس» أمام عينيك، فلتصمت هذه اللحظة وتجعلها سهلة على الجميع، فالكل في جميع الأحوال هالك وسيُقضى عليكم واحداً تلو الآخر.

كان «سليم» متيقناً من أن هذه اللحظة ستأتي حتماً، فهذا الكنز لها ولن تسمح لأحد بمشاركتها فيه وإنفاق سنين عمرها هدراً، فقال لها متوسلاً:

– سنترك لك الشارة الأخيرة ودعينا نرحل في سلام، لا أنا طامع في كنز ولا ثروة؛ كل ما أتمناه أن يعيش ابني في أمان.

– ابنك!! وكيف لي أن أفتح الجدار دونه؟

– أكنتِ تعلمين أن «أنس» هو طريقك للكنز منذ البداية ولم تفصحي عن ذلك! يا لكِ من امرأة خبيثة قذرة!!

– هدّئ من روعك يا صديقي.

– صديقك! إبليس نفسه يرفض أن تقولي له هذه الكلمة.



– طالما ذكرت الشيطان فهو سيظهر لك، وها هو أمامك بشحمه ولحمه.

وضحكت في سخرية وهنا شعر «أنس» بما يدور من خلفه فتوقف قبل أن يصل للجدار ويضع المفتاح، فاستقرت به المسافات بين أمه وأبيه والجدار بالتساوي، وظل صامتًا ينظر محاولًا أن يفهم ما يحدث حوله.

ما زالت «ماشا» تقترب من وجه «سليم» وهي تحدثه:

– أنت تظلمني كثيرًا يا صديق، ولكن من الأمانة أن أقول لك أني منذ أن رأيتك وأنا أنام كل ليلة وأنتظر الأخبار الجيدة في اليوم التالي، وكنت تفعل ذلك بجدارة بالرغم من أنك شخص جبان يا سليم، جبان جدًّا تخاف من كل شيء وعلى كل شيء، ولولا الأحداث المرّة التي عشتها وأنت تجمع الشارات لم نكن أبدًا سنحصل عليها.

هنا استدارت ونظرت للصغير نظرة صارمة ولكنه لم يهتز لها وعادت أدراجها ل«سليم» وأحكمت قبضتها على فكه وهي تقول:

– الحفيد المختار يملك قلبًا أشجع من قلب أبيه!

– منذ متى وأنت تعلمين بأمر «أنس»؟



– أنا لم أعلم من نفسي أيها الغبي، هو من قالها لك وأنت في طريقك ولكنك لم تلتفت إليه. الطفل يتمتع بذكاء لم يحظ به أبوه، ولكن دعني في النهاية أشكرك فالغباء في حد ذاته موهبة، فأنت من اقترحت أن يأتي الصغير معنا، فلولاك ما كان هو ولولاه ما سأكون أنا.

ورددتها ثانية وهي تذهب باتجاه «أنس» حتى تضع المفتاح:

– أنا فقط.

وهنا شعرت «عائنة» بالغدر من «ماشا» واقتربت منها قبل أن تصل ل«أنس» وتحولت للحيّة الذهبية العملاقة، وكانت على مرأى من الجميع، وزحفت حتى أحاطت رقبتها لتخنقها وتتخلص منها ولكن العجوز استنجدت بأحد حرسيها الذي أوقع «مَرام» من يده وانقضّ على «عائنة» بسكينه ووضعها في رقبتها، ففكت ربطتها عن عنق العجوز لتحاول التخلص من السكين. ومع آخر محاولة وآخر نفس يخرج منها ضرب ذيلُها السكين، الذي طار ونزل على يد «أنس» التي تحمل المفتاح وقطعتها شر قطعة لتنفجر من معصمه نافورة من الدماء، فقد معها الصغير الوعي ودوّت صرخة أمه في الصحراء وانطفأ بريق الجدار شيئًا فشيئًا حتى اختفى تماماً هو وما شُيّد خلفه، بينما همَّ «سليم» الذي طار



عقله حينما رأى ابنه مغشيًا عليه والأرض قد ارتوت بدمائه فحمل نفس السكين وجرى في اتجاه «ماشا» ولكن لحقه الحارس الآخر بخبطة على مؤخرة رأسه، ومعها غاب عن الوعي تمامًا وكان آخر شيء يراه هو زوجته وهي تصرخ بجوار ابنها، وبعدها تحول كل شيء للون الأسود.



(٢٢)

البداية

بعد مرور ثلاثة أشهر...

«سليم» ملقى على سرير في مستشفى تحت الأجهزة الطبية، من جهازٍ للتنفس وجهاز لقياس ضربات القلب، ومعلقة في يده محاليل تعويضية عن الطعام والماء العاجز عن تناوله منذ أن تلقى الضربة على رأسه وتعرض لارتجاج شديد في المخ، ما أدى إلى دخوله في غيبوبة لا يفيق منها إلا لمدة دقيقة ثم يعود بلا حراك مرة أخرى.

تجلس بجواره «مَرام» ووالدتها اللتين لم تنقطعا عن الصلاة ليل نهار، تضرعًا للّه حتى يتعافى.

وها هو الصغير يجري هنا وهناك ممسكًا بيده ريموت الطائرة ليرسل لها إشارات للحركة ويجري خلفها ليتبعها أينما طارت.

تزداد حركة نبضات قلب «سليم» على الجهاز ويُصدر صفيرًا فتهرع «مَرام» للمرضة لتأتي لها بالطبيب، وحينما عادت وجدت والدتها تقف ممسكة بيده وهي تبكي حينما فتح عينيه وحرك شفتيه وسألها عن «أنس».



قام الطبيب بمتابعة حركة نبض القلب وقام بإعطائه حقنة لحفظ توازن ضغط الدم تحفظًا حتى لا يعود للغيبوبة مرة أخرى. وبعد أن هدأت أموره وطمأنهم الطبيب أن حالته بدأت في الاستقرار ويمكن التحدث معه ولكن بحذر والقليل هو المسموح فقط.

– حمداً للّه على السلامة يا حبيبي.

– أنتِ بخير؟

– كلنا بخير، المهم أنت.

– أين «أنس»؟

– هنا في الخارج يلعب، انتظر حتى آتي لك به.

ذهبت لخارج الغرفة وعادت وهي تحمل الصغير وهو ممسك بجهاز التحكم والطائرة.

نظر «سليم» ليد الولِد ولم يستوعب الأمر في البداية حتى سبقت «مَرام» سؤاله معللة:

– قمنا بتركيب يد صناعية له، سافرنا خصيصًا أنا وهو مستشفى في ألمانيا وقاموا بعمل اليد الصناعية على أعلى طراز وبكل الإمكانيات الحديثة، غير أن المادة المُصنع منها الهيكل الخارجي لا



تفرق في شكلها ولا حركتها عن أنسجة اليد الطبيعية.

- ماذا حدث مع «ماشا» وحراسها؟ ومن الذي قام بنقلنا إلى المستشفى؟

نظرت له «مَرام» مطوّلًا محاولةً أن تفهم ما قال، ثم نظرت لوالدتها التي أبدت الأخرى اندهاشها مما سمعت، فقالت «مَرام» مستنكرة:

- من «ماشا» وحراسها! من هؤلاء الذين تسأل عنهم؟!

شعر حينها «سليم» بألم في رأسه ودوخة ولكنه أكمل استفساره:

- ما بك يا «مَرَام»! ألم نكن معًا حينما أتت «ماشا» وكاد الجدار أن ينفتح لولا أن السكين أفلتت من يد الحارس ونزلت على يد أنس.

- اهدأ يا «سليم»، أنا لا أدرك شيئًا مما تقوله. ما هذا الذي ترويه؟! ربما يكون حلمًا أو خيالات تعيشها منذ ثلاثة شهور أثناء فترة الغيبوبة.

- ثلاثة شهور! وكيف لا تعلمين شيئًا عن «ماشا»؟! هذه السيدة اليابانية العجوز التي قامت بخطف



«أنس» وكانت تحمل المخطوط وأنا بغبائي أخذتكما معي وسافرنا النوبة جميعًا، وأنت بنفسك رأيت الجدار وما ينشق وراءه ومدينة الذهب التي شُيّدت خلفه حينما وضع «أنس» الحفيد المختار أولى الشارات!

– «أنس» والحفيد المختار!!!

قالتها «مَرَام» وهي في ذهول مما يقول.

– أستمحيكَ عذرًا انتظرني لدقيقة.

لم تجبه عما قال وخرجت لتتحدث مع الطبيب الذي أكد لها أن هذا سبب مكوثه في الغيبوبة لمدة طويلة، وعادةً هذا يحدث مع المرضي، فمنهم يعتقد أنه مات ويحاسَب، ونصحها بأن تهدأ وتحاول تهدئة زوجها وأن تحكي له ما حدث برويّة حتى يستوعب عقله ما حدث معه.

حينما عادت له كان قد غاص في نوم عميق وليس غيبوبة هذه المرة، وقبل حلول المساء رحلت والدتها ومعها «أنس» وهنا استفاق «سليم» الذي أعاد عليها نفس الأسئلة.

– أين «ماشا» ومن معها وكيف عادوا للمستشفى؟



– حاول أن تهدأ، سأقص عليك ما حدث بالتفصيل ومن البداية لعلك تتذكر.. بعد أن أنهيت محاضرتك في الجامعة وعدت إلى البيت، كنت أنا والولد في انتظارك لنسافر لتقضية يومين بالعين السخنة، وهذا ما حدث بعد أن انطلقنا على الطريق.. مالت بك طارة السيارة وجِدنا بعيداً عن الطريق ودخلنا إلى منطقة خاوية مظلمة، وهنا ظهر رجلان مهيبا الجسد مثل لاعبي الملاكمة أو حراس الأمن، واحد منهما مسك ب«أنس» في قبضته والآخر قام بضربك على مؤخرة رأسك وكان يمسك بيده سكينًا كبيرة تشبه السيف، بعد أن أحكم قبضته على وضع طرف السكين على رقبتي هنا هاج وماج «أنس» وعلا صوت نشيجه وظل يركل الرجل بقدميه ويديه حتى أفلت من يده وأوسع الخطى ناحيتي وأمسك بحجر من الأرض وحدف به الرجل الممسك بي، وإذا به يلتفت في اتجاه الحجر ويجد «أنس»، أحاول أنا أفلت منه وإذا به يعتدل في مسكته لي فركلته فأفلتت السكين منه وطارت ساقطة على يد صغيري، حينها مع تدفق الدماء من يده فقد الوعي وأنا خلفه بعد صريخ دام دقائق.

توقفت عن الحكي لتسترد أنفاسها ولكن فضوله لم ينتظرها فسألها:

– وماذا بعد؟؟



– حينما استرديت وعيي من الإغماء وجدت نفسي هنا في مكان عملي و«أنس» في حالة يُرثى لها ولا تحتمل التأجيل، وبعد أن أخبرني الطبيب أنه لا يعلم متى ستسترد وعيك أخذته وسافرنا على متن أول حجز متاح لألمانيا وظل والداي هنا بجوارك. إنما ما تسأل عنه.. «ماشا» وكنز وعجوز ومخطوط، أكيد هذه هلاوس من إنتاج عقلك وأنت في الغيبوبة، ليس لها علاقة بالواقع.

لم يستوعب ما قالته «مَرام» وكيف لها أن لا تتذكر العجوز، كان نسيانها أشبه عنده بالموت! ظلت الأفكار والأسئلة تراوده دون إجابة ولا تفسير حتى إنه حينما عاد إلى حياته الطبيعية وبيته لم يجد دليلًا واحدًا على «ماشا» ولا ما حدث ولا «عائنة»، حتى عندما تحدث مع «أنس» لم يتذكر أي شيء غير الذي قالته زوجته في المستشفى.

ذهب «سليم» للشرطة التي استدعاها أحد الجيران حينما هجم حراس «ماشا» على «أنس» والمربية وخطفوه وأغلق المحضر حينها ولم يكتمل.

لم ينفِ ضابط الشرطة أن هناك محضر قامت به زوجته المدعوة «مَرام» وذُكر فيه اسمه واسم ابنهم «أنس»، ولكن مع اختلاف الأحداث وما هي إلا نفس ما قصَته عليه في المستشفى.



ترجّى ضابط الشرطة في طلب لأنه يعتقد أنه هو وأسرته في خطر وأن هناك حلقة مفقودة:

– هناك سيدة تدعى «ماشا هالبيرن» وهي من اليابان، هل يمكن أن أعرف متى غادرت مصر؟

ثم سكت وأضاف ثانيًا أن آخر مكان رآها فيه كان النوبة، فقام الضابط باتصالاته وفي غضون ساعة أتاه بالمعلومة.

– توجد فعلًا سيده كبيرة في العمر دخلت مطار الإسكندرية ولكن هذا حدث من أكثر من خمس شهور، وهي حتى الآن بمصر لم تخرج منها.

– هذا لا يُعقل! ألم تسافر إلى فلسطين ولا اليمن ولا...

قاطعه الضابط مؤكدًا:

– هذا ما حدث وهي الآن موجودة بمصر ولم تغادرها قط، وما أضافوه أنها في مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر، تسمى «القصير» مقيمة في منتجع سياحي، وهذا الشيء الوحيد المتطابق مع كلامك أنها تحمل الجنسية اليابانية.

فسأله سليم الذي بدت عليه الحيرة والتعب:



– ماذا تفعل في البحر الأحمر؟

تبعد القصير قرابة ساعتين جنوب الغردقة وثلاث ساعات عن مدينة الأقصر غير أنها منتجع سياحي هادئ، غنية بالآثار الفرعونية، بها منجم ذهب كبير ليست الوحيدة من السياح هناك بل الآلاف.

بعد أن أنهى «سليم» حديثه مع الضابط لم يهدأ له بال، وقام على الفور بالسفر إلى هناك ولكنه لم يجد لها أثرًا هناك، ولكنه كان يشعر بوجودها حوله.

* * *

بموجب المحضر وما حدث مع «سليم» وعائلته في طريق السخنة طلب المحامي أن تكون هناك حراسة أمنية مشددة عليهم مثلما طلب منه «سليم»، وكان له ما طلب.

وحاول بعدها أن يعيش مع هذا الواقع إلى أن يقع في يده دليل على ما عايشه وتألم معه.

يأتي «أنس» لأبيه ويوقظه من نومه ليريه آخر ما رسم، فاعتدل «سليم» وهو يحملق في الورقة سائلًا:

– ما هذا؟

فأجاب الصغير:

– إنها خريطة لكنز رأيتها حينما أغمضت عينيّ وأنا أشاهد التلفاز، ورأيت نفسي وأنا شاب كبير وممسك بمفتاح، وأنني أقوم بفتح بوابة ضخمة خلفها كنزٌ مضئ.

أكد عليه أنه لن يتخلى عن كنزه حتى آخر نَفَس في حياته، وأن الطريق إلى الكنز محفور في ذاكرته وكأنه رآه بأمّ عينيه.

تمّت

ستظل الأجيال الحالية والقادمة معدومة الحيلة ومبتورة الأيدي، عاجزةً عن الكلام والفعل، إلى أن تستفيق من غفلتها وتعلم أن العدو يلهيك بالوهم ويمنّيك بالمغريات، بينما هو لن يغفو جفنه إلا بعد أن يستنفذ كل خيرات وكنوز البلاد والعباد. ولتعلم أن أقدارنا ما هي إلا حلقاتٌ متصلة؛ فإن سقطتُ أنا ستكون أنت التالي والعكس صحيح، فسنظل تكملةً لبعضنا البعض إلى أن تحين الساعة.

الأعمال السابقة

– ملاك الموت – رواية

– جريمة في شارع التسعين – رواية

– الليلة الأخيرة – رواية



